
سلسلة
الأرشيف
18
13
ثلاثة عشر
" مستوحاة من أحداث واقعية "
ميرنا المهدي

ثلاثة عشر

الكتاب: ثلاثة عشر
المؤلف: ميرنا المهدي
تصميم الغلاف: محمد الغنيمى
تدقيق لغوي: عاشور عطا
تنسيق داخلى : أحمد عبد الحليم
رقم الإيداع: 28369 / 2019
الترقيم الدولي: 2-214-778-977-978

للنشر والتوزيع
20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت: 02-338560372
Noon_publishing@yahoo.com

سلسلة الأرشيف

ثلاثة عشر

مستوحاة من أحداث واقعية

ميرنا المهدي

ن للنشر والتوزيع

(1)

القاهرة، 1963

بين ضحكات النساء ودردشة الصفوة ودخان السجائر ورائحة الويسكي، دخل مطعم «اللوتس» ثلاثيناتي طويل القامة كث الشارب.

خلع قبعته ومعطفه وناولهما للنادل وألقى نظرة مطولة على علية القوم من السُكارى والمخمورين حتى يتأكد من وجود من أتى المطعم لهم، فابتسم ابتسامة تحمل نصراً يشوبه الكثير من الخبث ثم سار خلسة لكواليس المسرح وصولاً لممر تتبعثر فيه الغرف يميناً ويساراً حتى توقف عند واحدة لينقر بابها.

- «ادخل» أجاب ساكنها.

دخل الغرفة التى فاحت منها رائحة النبيذ الأحمر والدخان المنبعث من بايب صديق طفولته القصير ذي الصلعة اللامعة والوجنتين الحمراوين وهو يزرر قميصه الأبيض الذى برز منه كرشه السمين.

- «معقولة؟ حضرة الظابط جالي بنفسه؟»

- «اعذرنى يا إبراهيم، إنت عارف إنه مش بإيدى».

أخرج حسين سيجارته وأشعلها بالثقاب ثم نفث دخانه فى الهواء بينما فتح صديقه زجاجة النبيذ مبتهجاً

- «الزيارة دي تستحق كاسين Sauvignon».

- «لا لا، أنا قدامي ليلة طويلة ولازم أفضل فايق» نفث دخان سيجارته: «إنت لسة بتعمل حكاية التنويم المغنطيسي دي؟».

***

علت الأضواء بغتة واعتلى المسرح مقدم الفقرات النحيف ذو التوكسيدو السوداء أمام خلفية كبيرة لخطوط مستديرة بالأسود والأبيض تؤذى النظر يقابلها كرسي فخم يشبه عرش الملوك.

أمسك المايكروفون المستدير وصاح بصوتٍ مسرحيٍ:

- «سيداتى، آنساتى، سادتى... أتمنى تستمتعوا بفقرات بروجرام السهرة... والآن يسرنا نقدم لكم فقرة ساحرة بينفرد بيها مطعم اللوتس... مزيج من السحر والعلم... فقرة التنويم المغنطيسي مع مسيو إبراهيم سمعان».

فرد يده بطريقة مبالغ فيها صوب الخلفية الثابتة فانفتحت رأسياً وخرج من خلفها إبراهيم بكامل حلته أثناء تصفيق الحضور، يصفقون بحرارة عدا شويكار وسليم، زوجين يافعين انشغلا بارتشاف الشامبانيا على طاولتهما البعيدة عن المسرح وتبادلا نظرات العشق وابتسامات الهيام.

كانت شويكار منغمسة فى التدقيق بملامح زوجها وتائهة عما حولها إلى أن جذبتها كلمات إبرهيم

- «إمتى آخر مرة كل الأصوات اللى فى دماغهم سكتت وحست بالسَكِينة؟» التفتت شويكار صوبه وهو ينزل درجات المسرح: «الغرض من التنويم المغنطيسي هو إنك تنيم همومك، تطلع التعب، تسكن الوجع وتشوف حقيقتك» تعلقت بكلماته أكثر وإذا به ينظر صوبها وكأنه يحادثها:

«حقيقتك اللي الزحمة والدوشة والسعي ورا الشهرة والشهوة والمناصب نسيتهالك».

وقف حسين مدخناً سيجارته خلف الكواليس مشاهداً بترقب ما يدور على المسرح ومتمزجاً بكلمات صديقه التى لمع بريقها بقلوب الحضور.

- «التنويم المغنطيسي مش سحر ولا دجل... ده علاج وراحة» اقترب أكثر من شويكار حتى وقف عند رأس طاولتها ومد يده صوبها بابتسامة ساحرة: «مدام، تسمحيلي تبقي شريكتي فى الرحلة دي؟».

أجاب سليم بتحفظ: «ميرسي، مافيش داعي».

لم يعلق إبراهيم وظل يحدق بعينيّ شويكار الكحيلتين وكأنها يسحر لها. ابتلعت ريقها والتفتت لسليم.

- «خليني أجرب، يا سليم. الموضوع شكله ظريف».

ربت على ظهرها بحنان قائلاً: «إللي تحبيه».

أمسكت يد إبراهيم فهمس باسماً: «إسمك؟».

- «شويكار».

- «تحية لمدام شويكار، سي لو ڤو بليه».

صفق الحضور، ومشى إبراهيم ممسكاً بيدها ليقودها صوب الكرسي بوسط المسرح وأشارها لها بالجلوس.

جلست متوترة ثم نظرت لسليم وسط الجمهور. لوحت له ببراءة، فبعث لها قبلة بالهواء بينما تأهبت أوصال حسين وأخذ يتابع المشهد عن كثب.

أرخى إبراهيم قبضته فتدلت منها سلسلة تنتهي بساعة ذهبية مستديرة وخفتت إضاءة المسرح إلا كشافاً واحداً مسلطاً عليهما.

- «غمضي عنيكي وفكري في أكتر مكان بترتاحى فيه...».

أخذت نفساً عميقاً وأغمضت عينيها باحثة عن المكان الوحيد الذى شعرت فيه يوماً بالسكينة.

رأت نفسها جالسة بقاعة مظلمة على كرسي أحمر مبطن بجوار سليم بمراهقتهما حين اعتاد التظاهر بأنه يتثاءب ثم يفرد ذراعه ويضعه بخبث على كتفها، فتبتسم بخجل.

تدور الماكينة وتبعث شعاعها الساحر للشاشة الكبيرة بالقاعة المظلمة، فتسمع شويكار تلك الموسيقى السينمائية الهادئة وتعتدل في جلستها بحماس مع انتهاء التترات لتشاهد الفيلم مع شريكها.

- «تقدري تفتحي عنيكي بالراحة وبهدوء».

اخترق صوت إبراهيم المشهد لأذنيها ففتحت عينيها بترو ورأت تلك الساعة بعقاربها الهادئة متدلية أمامها.

- «عينك عـالساعة».

حركت مقلتيها مع الساعة التي تأرجحت بروية يميناً ويساراً.

- «ماتسمعيش غير صوتي».

يميناً ويساراً ثم تحولت عقارب الساعة لثعابين تتلوى وتصدر فحيحاً.

- «صفي عقلك».

يميناً ويساراً تلونت الثعابين بالأسود وتشكلت لدوائر بيضاء وسوداء كخطوط سريالية.

اتسعت حدقتاها ولم تعد تسمع سوى صوته واختفت الوجوه والأشياء وصمتت كل المؤثرات.

أمرها: «نامي».

أغمضت عينيها وهوت رأسها إلى أسفل كالجثة وصارت أسيرة حفرة مظلمة.

همس إبراهيم للجماهير: «سيداتى وسادتى... أتمنى الهدوء التام»، وجه حديثه صوبها: «مدام شويكار... إنتِ سمعاني؟».

أجابت مغمضة دون حراك: «أيوة».

- «تقدري تقوليلي اسمك؟».

- «شويكار جلال عبد الحي».

- «مين أكتر حد بتحبيه؟».

- «سليم».

ابتسم سليم راضياً فنظر إبراهيم صوبه باسماً ثم أكمل:

- «واللي بتكرهيه؟».

- «أمي».

همهم الجمع ونظر سليم في تأهب وتوتر فأكمل إبراهيم:

- «إحكيلنا عن السر اللي في حياتك، يا شويكار؟».

- «أنا حامل».

تنبه سليم في مقعده واعتلت الجدية ملامحه وزاد ترقب حسين من خلف الستار.

- «مش السر ده .. إحيكلنا عن السر التاني .. إحكيلنا عن اللي حصل من سنتين».

- «أنا وعدتهم إنه هيفضل سر».

- «وعدتي مين؟».

- «الستات اللي كانوا في المصبغة».

وقف سليم وبدأ يتعرق بينما سألها إبراهيم.

- «مصبغة أيه؟».

صمتت مطولاً ولم تجبه، فاقترب هامساً في أذنها:

- «إعترفي بجريمتك».

- «أنا قتلت حداشر واحد».

شهق الجمع وتناثرت التمتمات على الطاولات وابتسم حسين وصفق ظافراً.

أردفت بسرعة هستيرية: «دفنت صبري في حيطة المطبخ».

ركض سليم مسعوراً صوب المسرح بين الطاولات التى ارتبك أصحابها ولم يعودوا يفهموا إن كان هذا تمثيلاً أم حقيقة.

- «بنيت فوقيه حوض أسمنت وزرعت فيه ورد».

خرج حسين من بين الستائر معترضاً طريق سليم قبل أن يصعد المسرح:

- «حِلمك، يا دكتور».

دفعه سليم بعنف واخترق المسرح وجثا على ركبتيه ممسكاً بكتفيّ زوجته وأخذ يهزها صائحاً:

- «شويكار.... شويكار فوقي».

اندفعت الكلمات من بين شفتي شويكار المخدرتين وأكملت كلامها:

- «تمن رجالة واتنين ستات .. دوبتهم... غرقتهم في النيل... دفنتهم في الصحرا... طبختهم في الحلة... أكلتهم للخنازير».

وضع إبراهيم يده على كتف سليم قائلاً: «يا مسيوماينفعش تـ...».

التفت إليه سليم وقد برز العرق بمنتصف جبينه ثم لكمه بقوة فأطرح السمين أرضاً ثم عاد لزوجته المهلوسة التي لم تترك له خياراً. صفعها بقوة ففتحت عينيها منتفضة واستيقظت شاهقة من تأثير التنويم المغنطسي لتجد نفسها أمام ذاك المشهد:

حسين يقف أسفل المسرح بنظرة ظافرة والناس ينظرون لها برعب وأنف إبراهيم ينزف وأفراد الأمن يقتحمون المطعم والعرق يملأ وجه سليم.

***

(2)

ارتعد جسدها النحيل وارتعشت أوصالها جالسة على طرف سريرها محدقةً بالأرضية الخشبية اللامعة وسليم يقف أمامها مضطرباً يحك مؤخرة رأسه بهلع هستيري.

- «مش عارفة ازاي قولت كده».

صاح: «مش مهم إزاي قولتي كده المهم قولتيه ليه؟ ليه ألفتي القصة العجيبة دي؟».

بكت: «أنا آسفة».

زاغت عيناها وأخذت تنظر حولها، جلس بجوارها على سريرهما وتكلم بصوتٍ أهدأ:

- «اللي قولتيه ده... «تثاقلت كلمته: « حقيقي؟!».

تأملتْ ورق الحائط ذا الورود الملونة والسقف المزخرف ثم الأرضية ذات السجاد الفستقي بنظرات تائهة إلى أن أجابته متمتمة: «بلاش».

- «إنتِ... إنتِ اللي قتلتي صبري؟».

نظرت إلى الزاوية كالضالة وظلت مركزة نظرها بعيداً عنه فجثا على ركبتيه وأمسك يدها متوسلاً:

- «لو مظلومة وحسين هو اللي مصمم يلف حبل المشنقة حوليكي قوليلي، ولو»شعر بثقل الكلمة: «لو قتلتي صبري بجد قوليلي... ماحدش هيقف جنبك غيري».

أغمضت عينيها متألمة ثم أخذت تضغط على رأسها وتطرقع عنقها.

- «هششششش».

أحاط وجهها بكفيه وأخذ يهزها: «أنا مش هتحمل خسارتك تاني».

فتحت عينيها وأخذت الدموع تهرب منها لا إرادياً بالرغم من أن ملامح وجهها كانت باردة وهائمة وبعيدة عن عالمنا، نظرت لأعلى وأخذت تتمتم: «أنا حامل».

وضع كفه على بطنها بحنان ولكنها أمسكت يده بعنف غارسة أظافرها بكفه:

- «العالم ظالم» تصاعد صوتها وكررت هستيرياً: «ظالم... ظالم... ظالم.. ظالم...».

حاول سحب يده من كفها وأظافرها ولكن اشتدت قبضتها وإذ بها تنظر له وقد ابيضت عيناها واختفت حدقتاها العسليتين وخرج منها صوت غليظ لا يمت لصوتها الرقيق بصلة: «ظالم!».

زاد فزعه وانتشل يده منها وابتعد ووقف بالزاوية يراقبها.

أخذت نفساً عميقاً وطرقعت عنقها ثم أغلقت عينيها وقالت بصوتٍ باردٍ:

- «افتح الباب».

رنّ جرس الباب بغتة فزادت ريبته.

خرج ليفتح الباب الخشبي ذا الفورفوجيه الداكن وإذا بالضابط حسين وعسكريين آخرين على عتبة بيته.

- «لو تكرمت، تندهلنا مدام شويكار .. معانا أمر بالقبض عليها».

تغيرت ملامح وجهه من الخوف للعنف.

- «ده بعينك، انت فاكر جو الشعوذة ده يؤخذ به في المحكمة؟».

أجابه بثقة: «طب والجثة؟».

اضطرب سليم وقال: «جثة أيه؟».

- «جثة صبري متقطعة في حيطة المطبخ في بيته زي المدام ما قالت وراسه مغروس فيها بذور ورد... مراتك زرعت ورد في دماغ طليقها».

تمكن منه الفزع فاقترب من حسين راجياً.

- «مستحيل... أكيد... أكيد ما كانتش في وعيها... شويكار مريضة نفسياً ولسة خارجة من المصحة من شهرين، لو

حضرتك مش مصدقني اسأل الدكتور وجدي عبد الغفار، هو اللي متابع حالتها».

- «دكتور سليم، مدامتك سفاحة... في سنتين بس قتلت حداشر شخص، عارف يعني أيه تقتل حداشر بني آدم ومانلاقيش جثثهم؟».

ثاقلت أنفاسه:» شويكار لا يمكن تعمل كده .. افهمني لو تكرمت يا حسين باشا أ..»».

- «الباشاوية اتلغت، يا دكتور... هتناديها ولا نجيبها بمعرفتنا؟».

نظر له باحتقار ثم دخل شقته وترك باب الشقة مفتوحاً.

فور أن دخل غرفة النوم وثبت وألقت بنفسها بين ذراعيه ولكنه أجلسها وجزّ على أضراسه هامساً بغضب:

- «حسين لقى جثة صبري في بيته مدفونة تحت حوض الورد اللي في المطبخ زي ما وصفتي بالحرف».

شهقت ووضعت يديها على فمها فهربت دموعها وقد زادت رعشتها: «مستحيل».

- «إنتِ اللي قتلتيه؟ أنتِ اللي قتلتي كل الناس دي؟».

سالت دموعها وقالت منكسرة: «مش فاكرة» انفجرت باكية ثم جثت على ركبتيها تحت قدميه وأخذت تتوسل: «أنا طول الوقت مش واعية، مابفوقش غير لما بتبقى جانبي» أحاطت وجهه بيديها: «أنا بحبك... خليك في ضهري» نهضت وأخذت تقبله بشغف ثم همست في أذنه: «ماتسبنيش».

أحاطها بذراعيه فتعلقت بعنقه واضعة رأسها على كتفه.

- «باقي الجثث فين؟».

لم تجبه.

- «مش وقت سكوت، فهميني عشان أساعدك بدل ما يلاقوا ضدك دليل تاني».

ابتسمت بخبث وهمست في أذنه كالحية: «مش هيلاقوا حاجة».

أرجع رأسه ناظراً إليها بصدمة: «يعني إنتِ فعلاً اللي قتلتيهم؟».

هزت رأسها في غنج ثم قالت باسمة: « كلهم».

نهضت من السرير ودخلت المرحاض وتركته مضطرباً يحاول استيعاب أبعاد الورطة التى بها.

أغرورقت عيناه بالدموع ولكنه حاول أن يتمالك أعصابه كي يفكر بوضوح ولكنه تذكر أن حسين مازال بالخارج. نهض من فراشه واتجه للحمام ليجدها جالسة على المرحاض في وضعٍ أفزعه: بمعصمها جرح غليظ سالت منه الدماء لتخضب فستانها وبيدها الأخرى موس حلاقته يتقطر منه دمها.

همست بصوتٍ ثابتٍ خالٍ من أي تعبير: «اللعبة قربت تخلص».

***

(3)

نفث سليم دخانه بتوتر ثم أطفأ سيجارته بالمرمدة الكريستالية ونظر لصورة عبد الناصر المعلقة وراء مكتب حسين وبجواره الكاتب بقلمه المتأهب للكتابة.

- «مراتي ماقتلتش حد».

- «بس هى قالت بلسانها أنها....».

- «إنت عارف إن خديعتك دي ضد القانون وما تصلحش كدليل للمحكمة».

- «لو ما كانش فيه دليل ضدها ما كنتش انتحرت».

- «1 من أصل 3 من اللي بيعانوا من اضطراب ثنائي القطب بيحاولوا ينتحروا، وهي متشخصة بالمرض ده من وهى في سن المراهقة».

- «هنضم الكلام ده للتحقيقات ونستنى كلمة القضاء»
ابتسم له ابتسامة سمجة ومستفزة ومد يده صوبه: «الدفتر».

زفر سليم وأخرج من جيبه دفتر صغير ألقى به بازدراء على مكتب حسين، فتحه الأخير وقلب صفحاته ثم رن الجرس فحضر العسكري وناوله حسين الدفتر قائلاً:

- «إدي ده لخبير الخطوط».

- «تمام، يا فندم» أخذ الدفتر وانصرف، شبك حسين أصابعه قائلاً:

- «إنت وصبري كنتو أصدقاء، مظبوط؟».

- «لأ، يدوبك معرفة من تمرين الملاكمة».

- «وهو والمدام اتعرفوا على بعض ازاي؟».

- «ماعرفش».

- «شويكار قالت لك إنها قتلت صبري قبل ولا بعد ما اتجوزتوا؟».

سحب نفساً من سيجارته ثم تذكر ما لا تذكره شويكار....

***

ديسمبر، 1960

وقف سليم خلف شباك منزله ذي الطابقين ومطر الشتاء يرتعش على زجاج نافذته حتى رآها تركض ضاربة الطريق المبتل بقدميها، ممسكة بثوبها القرمزي.

ذُهِلَ ولكن أسرع ليفتح الباب فوجدها واقفة على عتبته مبتلة بالكامل وقد زادتها قطرات المطر سحراً.

دخلت بلا استئذان ثم أغلقت الباب خلفها، كانت تلهث بشكل مبالغ فيه وظلت تنظر له بطريقة لم يعهدها، فشويكار لم تكن صاحبة أعين جريئة أو ابتسامة مثيرة ولكنها اقتربت منه بنظرة دبت شهوة الشيطان بقلبه فإذ بها تشب على أطراف أصابعها وتتعلق برقبته وتقبله بعنف.

دفعته بعنفوان فهوى على الكرسي وهى تقبله بشغف وهو يتحسس جلده البارد بينما تسللت أصابعها لتفك أزرار بيجامته

فجذب يديها واعتصرهما في قبضته فلمس خنصره تلك الدبلة الذهبية بيدها اليسرى، وهنا استفاق.

فتح عينيه ودفعها. نظرت له مستعجبة. أنزلها عنه ونهض عن كرسيه صائحاً:

- «ارجعي لجوزك».

انتبهت لدبلتها. خلعتها ثم نظرت صوب المدفأة وألقتها بها لتلتهمها النيران الجائعة.

نظر مستفهماً: «يعني إيه؟».

نهضتْ واتجهت صوبه ثم همست بأذنه: «أنا ملكك».

فتحت سحابها كعاهرة متمرسة، وأسقطت ثوبها متباهية بقوامها الممشوق الممتلئ بالكدمات.

وإن كنت من محبي السينما النظيفة فلك أن تتخيل البرق يضرب السماء والنافذة تفتح بعنف والقهوة تفور...

استلقيا على السرير تحت الغطاء الدافئ، أشعل سليم سيجارة نفث دخانها محدقاً بالسقف.

- «أنتِ لعنة ولا ألف شيخ هيعرف يخلصني منها».

قالها وقد اجتاحته مشاعر من النشوة المختلطة بالخطيئة. جذبت السيجارة من بين شفتيه وسحبت الدخان لرئتيها ثم نفثته في الهواء محدقة بالسقف.

- «أنا عمري ما هبقى عشيقك اللي بتخوني صبري معاه».

ضحكت ضحكة مجلجلة كالساقطة وأغمضت عينيها منتشية:

- «مافيش صبري تاني .. أنا قتلته».

وضعت رأسها على صدره العريض فسحب السيجارة من بين أصابعها وأطفأها ثم أزاح رأسها صائحاً:

- «إيه؟».

دفنت رأسها بين الوسائد وأسهبت في الحديث بالنبرة ذاتها.

- «قطعته حتت صغننة ودفنته في المطبخ تحت الشباك وبنيت فوقيه حوض ورد .. تعرف إن الجثث بتزود خصوبة الأرض؟».

فتح فاهه في هلع: «أنتِ بتتمألسي عليَّه؟».

ضحكت: «صح» حاولت أن تكتم باقي ضحكاتها: «أنا بتمألس».

أغمضت عينيها وأخذت تضحك في هيستريا كالمجنونة حتى غفت... سقطت في بؤرة النوم بغتة.

ناداها فلم تجبه، هزها وكرر نداءه حتى فتحت عينيها واستيقظت.

- «سليم؟!».

انتفضت كمن لدغتها حية وقد خمدت نظرة العهر بعينيها وراح ذاك الفجور من صوتها، نظرت حولها في ذهول فوجدته عارياً وهي مغطاة ببطانية بالكاد تستر عورتها، نخمشت وجهها.

- «يا نهار أسود» نظرت له فبكت: «إزاي تعمل كده؟».

نهضت سريعاً من السرير والعار يأكلها وهي تبحث عن ملابسها.

- «هدومي فين؟».

- «تحت».

ركضت ملفوفة باللحاف الأصفر، سحب سليم سرواله ولحقها على السلالم الخشبية وهي ترتدي ثوبها بجوار المدفئة، بيدين مرتعشتين.

- «أنا حاولت أمنعك بس أنتِ...».

صرخت به: «أنا مش فاكرة حاجة .. أنا مش عارفة أنا جيت هنا إزاي .. ما كانش ينفع تطاوعني وتستغل إني مش في وعيي».

- «تقصدي بإيه مش في وعيك؟».

لم تجبه وأخذت حذاءها واتجهت صوب الباب فأمسك برسغها ليستوقفها، ولكنها دفعته باشمئزاز.

- «إياك تلمسني تاني إنت فاهم».

فتحت الباب وخرجت لتترك سليم مضطرباً بأفكاره المتخبطة.

***

- «ماكنتش أعرف إنها اللي قتلت صبري لأنها ببساطة ماقتلتوش .. شويكار ماتقتلش».

- «اللهم طولك يا روح» زفر حسين بعصبية بينما أخذ يبحث عن شيء بأحد الملفات أمامه حتى وجد ضالته.

صورة فوتغرافية للوحة، بها ثلاث عشرة سيدة على وجوههن بؤس وفى أعينهن غضب، والعجيب أن جميعهن لديهن أفواه خِيطت كما يخيط فم الميت بالمشرحة وإذا دققت النظر ستجد شعلة نيران متقدة بأعينهن وهن يقفن بجوار بعضهن بملابسهن البسيطة فوقها مريول متسخ بالشحم وخلفهن حائط عليه ثلاث عشرة صورة لوجوه أشخاص، عشرة رجال وامرأتين، وبالصورة الأخيرة علامة استفهام كبيرة.

نظر سليم للضابط: «مش فاهم؟».

- «دقق في الصور اللي ورا الستات».

ركزّ فوجد وجه صبري، والعجيب أن هناك علامة X كبيرة على كل الصور عدا الصورة الثانية عشرة، بلع ريقه مضطرباً بينما وضح حسين:

- «دي صورة للوحة زيتية متعلقة في المطبخ فوق حوض الورد اللي اتدفن فيه صبري. البراويز اللي ورا الستات فيها صور لاتناشر شخص منهم حداشر معمول عليهم علامة إكس بالأحمر، الحداشر شخص دول اتقتلوا ومش متبقي غير الشخص اللي في صورة رقم اتناشر».

- «عظيم، راقبوه بقى وشوفوا مين هيحاول يقتله».

ابتسم: «عجباني الطريقة اللي بتهرب بيها من السؤال».

- «فين السؤال؟».

- «تعرف أيه عن اللوحة دي؟».

- «ماعنديش فكرة».

- «إزاي وأنت كنت عايش في بيت المدام القديم... قصدي بيت صبري القديم؟».

وبرز عرق جبينه وجزّ ضروسه.

- «شويكار كانت متعلقة بالبيت وصممت تفضل فيه، وعشان ظروفها الصحية ماكنتش برفض لها طلب لحد ما هي بنفسها طلبت ننتقل لبيتي».

- «شويكار اللي رسمتها؟».

- «ما ظنش... بس هي قالت لي إن اللوحة دي عن أربعتاشر ست عملوا حزب سري ضد الحكومة مقره مصبغة مهجورة، وقدروا يوصلوا صوتهم ويضغطوا عـالحكومة والإنجليز اللي قرروا يخلصوا منهم. واحدة من الستات دول خانت الباقي ودلت عليهم البوليس فهجموا عـالمصبغة وحرقوها بعد ماقعدوا أيام يعذبوهم عذاب وحشي... كلهم ماتوا محروقين».

- «شويكار ماذكرتش المصبغة دي فين؟».

- «قالت لي إنها مكان بيت صبري، حتة الأرض اللي كانت عليها المصبغة كانت ملك والدة صبري».

- «يعني شويكار مقتنعة أنها لوحة مسكونة؟».

- «شويكار بتشوف وبتسمع هلاوس كتير، يمكن القصة دي مش حقيقية زي ما أكيد قصة قتلها لصبري دي كلها بسبب مرضها اللي بيهيأ لها كل الأحداث دي».

- «شويكار جاتلها الأمراض النفسية دي قبل جوازكم ولا بعده؟».

- «الأمراض دي عندها من طفولتها».

- «طب إيه اللي خلاك تتجوز واحدة بالشكل ده؟ مش خايف لتئذيك زي ما أذت غيرك؟».

- «مراتي مأذتش حد».

ابتسم: «طب لو طلعت فعلاً هي اللي قتلت، هتفضل تدافع عنها بالطريقة دي؟».

زفر سليم ثم أجاب منزعجاً: «آه، ولو أقدر ألف حبل المشنقة حوالين رقبتي مكانها هعملها، عندك أسئلة تانية؟».

***

(4)

ثاءب العسكري الذى يقف على عتبة غرفة شويكار بالمشفى العسكري بعدما حاولت أن تنتحر. كاد يغلبه النوم ولكنه تصلب فور أن رأى الضابط وأدى التحية العسكرية فأمره حسين:

- «ماتسمحش لحد يدخل».

- «تمام، يا فندم».

دخل وأغلق الباب خلفه فوجدها جالسة على سريرها مسندة ظهرها على الحائط، رافعة رأسها إلى أعلى، مغمضة العينين، باسمة الثغر بسكينة وطمأنينة مدندنة كلمات أغنية بدت مألوفة لدى حسين.

Return to me…oh my dear I’m so lonely…» .

- «Hurry back, hurry back

سحب الكرسي الموضوع بالزاوية وجلس أمامها ففتحت عينيها بهدوء ونظرت له ببراءة.

- «بتحب دين مارتن؟».

- «ماليش في الموسيقى بس ليه في الرسم».

نظرت له منزعجة: «بكرهه... الرسم هو السبب».

- «السبب في إيه؟».

- «في إنه يظهر لي».

- «هو مين؟».

نظرت له بغضب ثم صاحت: «ماتسألش عنه أبداً. فاهم؟» نظرت بعيداً ثم قالت بحنان: «أنا عارفة إنك كويس... هم قالوا لي إنك ذكي».

- «هم مين؟... الستات اللي كانوا في المصبغة؟».

نظرت له في ذهول، نزلت عن سريرها ثم نزلت على ركبتيها أمامه متوسلة وانفجرت عينيها بالدموع.

- «أنا مش عايزة أقتل تاني».

فتحت يدها ووضعت كفها أمامه، أمسك يدها وتأمل راحتها فوجد ذلك الرسم الأسود العجيب.

كان رسماً دقيقاً يوضح ملامح رجل بدين ضيق العيون، محدب الأنف.

- «عايزني أقتله».

- «هم مين؟».

تراجعت وجلست على طرف السرير ونظرت له فجأة وكأنها أدركت وجوده للتو فهدأ بكاءها ثم ابتسمت بخبث وهزت كتفيها بلؤم وقد ارتدت وجه العاهرة.

زفر ثم قرر أن يسألها سؤالاً آخر: «طب قتلتي الناس دي ليه؟».

خرج منها صوت ذكوري غليظ: «عشان يستاهلوا».

انتصب شعر رأسه عندما سمع صوتها المرعب. اتسعت حدقتيها وأمسكت بعنقه لتدفعه بعنف.

كان سينادي على من يساعده ولكنه كان تحت أثر الصدمة، تلك الضئيلة القصيرة ألصقته بالحائط بقوة.

حاول دفعها ولكنها ثبتته بعنف، اعتصرت عنقه بين أصابعها فصفعها علَّها تستفيق، أطاح برأسها لأقصى اليسار ولكنها ضحكت بصدى مروع اقشعر له بدنه واصطكت أسنانها ثم تكلم الصوت الوحشي الكامن بداخلها: «ابعد... عن... شويكار... شويكار... مالهاش... دعوة».

جمع كل ما لديه من قوة وابتلع ريقه قائلاً:

- «أومال مين؟».

مدت يدها حول خصره حتى وجدت مرادها، سحبت المسدس من جرابه، فأمسك معصمها بعنف.

لكمته بقوة طاغية فسقط أرضاً والدماء تسيل من حاجبه، عادت عيناها العسليتان واختفى الصوت، نظرت له لاهثة بأنفاس مرهقة ونظرات مكدودة ثم شدت أجزاء المسدس

ورفعته عند رأسها ولكن ذاك الصوت المتوحش اخترقها صائحاً:

- «لاااااااااااااا».

ولا إرادياً تحركت يدها التي تحمل المسدس من دماغها إلى كفها، وأطلقت الرصاص على راحتها المرسوم عليها الوجه الثاني عشر.

***

(5)

قطب الطبيب حاجب حسين الذي شقته دبلة شويكار عندما لكمته.

رُكِل الباب واقتحم سليم الغرفة مهتاجا وقفز فوق حسين فسقط عن الكرسي، اعتلاه ولكم أنفه، حاول الطبيب أن يحمل سليم عن حسين ولكنه كان كالثور الهائج فركله حسين وثبت ذراعيه ثم ألصق وجهه بالحائط.

- «أنا ممكن أوديك في ستين داهية عـاللي بتعمله دلوقتي ده».

- «شويكار دخلت في غيبوبة وقطعوا لها كفها بسببك».

- «أنت مراتك مش طبيعية والموضوع مش مرض نفسي».

مسح خط الدماء الذي سال من شفتيه ثم نظر لحسين بسخط قائلاً: «إنت إنسان غير سوي ومحتاج تتعالج، بس أقسم بالله لهتدفع تمن كفها اللي راح ده غالي».

هندمّ نفسه ثم خرج من الغرفة التي عاثت بالفوضى.

***

جلس حسين بالغرفة ذات الحوائط الناصعة والمعلق عليها شهادات الطبيب وجدي عبد الغفار التي لطالما نخر بها.

- «أنا مسئول عن حالة شويكار من وهي عندها أربعتاشر سنة .. كانت بتتعب على فترات، تعدي سنين وهي كويسة جداً وبعدها تنتكس تاني، بس في الفترة الأخيرة كانت حالتها صعبة جداً ودخلت في تعقيدات ومضاعفات أنا لحد دلوقتي مش قادر أحللها أو ألاقي لها سبب، خصوصاً إنها في الفترة الأخيرة كانت سعيدة جداً في جوازها».

- «هي عندها إيه بالظبط؟».

- «اضطراب وجداني ثنائي القطب .. ببساطة شديدة وبدون أي مصطلحات علمية معقدة، ده مرض بيخلي

المصاب بيه متقلب الحال ما بين طور الاكتئاب الشديد والحماس والتوهج، ممكن النهاردة يبقى متفائل وبكره عايز ينتحر وكاره كل اللي حواليه، وبعض الحالات بتوصل لمراحل أنه بيسمع ويشوف هلاوس بتخليه يئذي نفسه واللي حواليه».

- «مين اللي جابها تتعالج عندك؟».

- «مامتها افتكرت إنها راكبها جني ولفت بيها على الدجالين، ماكانتش مدركة إنه مرض نفسي محتاج علاج، عمها هو اللي كان فطن فجابهالنا... قعدت معانا كام شهر ولما اتحسنت خرجت وماشوفتهاش غير لما جَت لي من كام شهر وجوزها معاها وحالتها أسوأ من الأول بكتير، بس سليم كان معاها لحظة بلحظة لحد ما اتحسنت

وخرجت تاني بعد ست شهور».

- «حكت حاجة بخصوص قتل صبري؟».

- «شويكار كانت بتقول اللي عايزاك تعرفه عنها وبس».

- «زي إيه؟».

لم يجبه.

- «ماحدش هيعرف إنك حكيت لي حاجة، الكلام مش هيطلع برة المكتب ده» نظر له وجدي بتردد: «بس كلمة شرف لو ماردتش على أسئلتي بأمانة إنت اللي مش هتطلع برة المكتب ده».

أخرج الدكتور وجدي البايب وأشعله بهدوء ثم بدأ كلامه بحذر.

***

القاهرة، 1950

توفى والد شويكار البسيط في 1948 بحرب فلسطين وإذا برجل يدخل وآخر يخرج من بيت الأرملة كاريمان محفوظ، ابنة المحامي الفاسد الذي وجد لنفسه كرسياً بين حاشية الملك.

تلك البغية ابتسم لها الحظ واستطاعت أن تجذب رجل أعمال ثري من حاشية الملك الذين يجتمعون بـ'كلوب محمد علي' للمقامرة فاتخذها عشيقة وابتاع لها شقة ببناية أنيقة بالزمالك.

وبكل زيارة لفراشها، كانت تلقي بشويكار خارج الشقة كأكياس القمامة حتى يفرغ السيد من عشيقته.

وبظهرية، كان ابن السابعة عشرة مرتدياً قميصه القطني وسرواله القصير حاملاً حقيبة رياضية، ينزل السلالم حتى وجدها، جالسة على السلالم الباردة دافسة رأسها في رواية أجاثا كريستي فاصطنع أنه يسعل ليلفت انتباهها.

انتفضت وأنزلت الكتاب عن وجهها فرأى ملامحها البريئة.

لمت ساقيها بتوتر معتذرة بخجل: «آسفة».

نزل السلالم ثم جلس بجوارها وابتسم بحميمية.

- «مافيش داعي، أنتو السكان الجداد؟» هزت رأسها إيجاباً: «إحنا ساكنين في الدور اللي فوقيكم».

توترت حين التقت أعينهما فأشاحت بنظرها صوب روايتها، سحبها من بين أصابعها فتلامسا فاقشعرتْ.

تفحص الغلاف الذي رُسمت عليه ورقة كوتشينة عليها رقم الثلاثة عشر ووراءها مسدس وكتب عليها العنوان بالدم «ثلاث عشرة مشكلة»، تصفح الكتاب ثم علق قائلاً:

- «إنتِ ليه بتقري عــالسلم؟».

- «مابحبش أقرا جوة».

- «بس كده حد يتعرض لك. لمعلومك، أنا بلعب ملاكمة وممكن أكسرلك سنان اللي يضايقك».

ضحكت فنهض عن السلالم ومد يده قائلاً: «تشرفنا، يا.. صحيح ماقولتيش اسمك».

- «شويكار».

- «سليم... سليم أنور».

في تلك اللحظة فُتح الباب ليخرج منه الثري ذو الأنف الأبطش وكريمان تقف خلفه برداء نومها الشفاف ذي الريش. كان شعرها غير مهندم وزينتها متبعثرة حول وجهها كله، ووقفت عند الباب تودع عشيقها ثم انتبهت لوقوف سليم عند طرف السلم بجوار شويكار فرمقتهما بغضب غير مبرر وانتظرت حتى نزل الثري ثم صاحت بـ سُليم.

- «مش أنت ابن العقربة التركية اللي فوقينا؟».

بلعت شويكار ريقها بصعوبة ونظرت لسليم بخِزي ثم دخلت المنزل متمنية أن تبتلعها الأرض.

دخلت غرفتها بخطوات غاضبة، جلست أرضاً ونظرت للوحة الفتى صاحب الدمية وظلت تحملق به وكأن هناك حواراً خفياً يدور بينهما، فقصتها مع تلك اللوحة هي الأعجب.

كانت ابنة الثامنة عندما دخل عليها والدها - الذي ورثت منه سماره وعينيه العسليتين - بغرفتها

- «بصي يا كيكي، اللوحة دي؟» تأملت اللوحة المريبة وهويقول «لقيتها ورا القهوة. بصي، العروسة اللي الولد ماسكها شبه عروستك».

نظرت لتلك الدمية ذات الشعر الأحمر الوهّاج والثوب المرقع والأعين المفقوعة. حملقت بالأيدي الملتصقة بالباب الزجاجي ثم عينيّ الطفل المريبة للحظات حتى قالت:

- «اسمه فريد».

- «هو مين؟».

- «الولد اللي في اللوحة .. أنا وهو هنبقى صحاب» أخذت اللوحة من بين أصابعه وعلقتها أمام سريرها، ثم قبلت خد والدها مبتسمة: «شكراً يا بابا».

في تلك الليلة، استلقت في سريرها تحدق باللوحة المريبة حتى رأته... حركَ الصبِي جفونه، أُصابعه، يديه ثم ذراعيه، قدميه ثم ساقيه... بعِثَ!

أخرج قدمه من اللوحة ووثب. ارتعدت وأحكمت قبضتها على الغطاء في هلع وهي ترى الصبي يقترب أكثر فأكثر حتى وقف عند طرف سريرها. صعد الصغير على فراشها ثم مشى على الغطاء وجلس مقابلها وظلا يحدقا ببعضهما.

مرت الليالي وصارت شويكار تحكي لأبيها عن فريد وكأنه خليلها ونيسها الوحيد.

زادت ريبة الأب وخوفه من جلوس ابنته ومحادثتها لصبي اللوحة، تلك اللوحة التي أدخلها.

عندما ذهبت شويكار للمدرسة، حمل اللوحة وألقى بها بالمكب وعندما عادت صغيرته من المدرسة سمع الأب ضجة منبعثة من غرفتها، فتح الباب فوجدها تتكلم.

- «أنا آسفة... مش هيعمل كده تاني».

دخل فوجد اللوحة معلقة مكانها سليمة لم يمسها ضرر، استدارت شويكار لأبيها قائلة بنظرة مريبة

- «ماتضايقش فريد تاني».

ظل فريد رفيقها الوحيد حتى ظهر سليم بحياتها وصارت تنتظر أن يأتي عشيق أمها كي تجلس على السلم وتنتظره إلى أن رن جرس بابها مرة.

فتحت الباب لتجد فتاة قصيرة مألوفة الوجه تكبر شويكار بعامين أو أكثر.

- «سعيدة، إنتِ شويكار مظبوط؟».

- «أيوة، مين حضرتك؟».

- «أنا هِيدى، أخت سليم».

- «أهلاً أهلاً، تشرفنا... اتفضلي».

- «لا، أصل سليم قالي إنك بتحبي القراية، فقلت نشتري روايات سوا؟».

دخلت غرفتها متحمسة، سرحت شعرها ثم ضفرته، وضعت ثوبها المفضل وأجمل حذاء عندها، تعطرت وخرجت في هدوء، أخذت المفتاح وأغلقت الباب بتروٍ حتى لا توقظ أمها التي نامت من شدة السُكر.

نزلت السلالم بتلهف طفولي عارم وسارت بضعة خطوات حتى وجدت هِيدى تنتظرها.

مشيتا سوياً بالشارع النظيف تحت الأشجار الخضراء ووسط الأوتوموبيلات اللامعة حتى وصلتا.

دخلتا بصمت المكتبة ذات الأرفف المنمقة وتمشيتا بين صفوف الكتب حتى رأت هيدي شاباً بآخر الممر.

كان طويلاً ونحيفاً، صاحب بشرة قمحية وشعر أسود أملس وسوالف طويلة وذقن خفيفة.

ابتسمت له هِيدى ثم همست لشويكار: «خدي وقتك، أنا هستنا كي برة».

أخذت شويكار تتابعها وهي تتجه نحو الشاب النحيف ذي القميص الأبيض، أمسك يدها وقبّل راحتها ثم خرجا

متشابكي الأصابع من المكتبة ووقفا بالزاوية بجوار الزجاج، اقتربت شويكار لتشاهدهما عن كثب.

رأت الشاب يُخرج وردة حمراء صغيرة من جيبه ويضعها خلف أذن هِيدى فضحكت ثم أخذا يتحدثا.

كان يتكلم فتسمعه، تضحك فيبتسم، يلمسها فتحمر خجلاً ... كانا متناغمين بشكل غريب.

ظلت تتابعهما حتى رآها الشاب وهمس لهِيدى فالتفتت لها.

دفست شويكار رأسها في ذاك الكتاب المقلوب الذي أمسكته سريعاً حتى لا يلاحظا أنها تراقبهما.

دخلت هِيدى وقالت لمن تتظاهر بأنها منشغلة بالقراءة: «تعالي يا شويكار أعرفك على سيران».

جذبتها من ذراعها وخرجتا من المكتبة قائلة: «سيران... أعرفك على شويكار جارتنا».

مد يده ليصافحها قائلاً: «فرصة سعيدة، مادموازيل شويكار».

- «أنا أسعد».

- «إحنا هنمشي بقى... هشوفك بكرة، يا سيران».

- «سيروم يم كَاين».

همست هِيدى وقد أضاءت عينيها ابتسامة عذبة: «سيروم يم كَاين».

ابتعدتا فسألتها شويكار بتحفظ: «ده كلام تركي؟».

- «لأ، أرماني، سيران من العائلات الأرمنلية اللي هنا».

- «إنتو مخطوبين؟».

- «مخطوبين؟ .. بقولك من الأرمن وأنا تركية، يعني مستحيل العيلتين يجتمعوا» وقفت هيدي بنصف الطريق: «تيجي نعدي على سليم؟».

***

وصلتا لملعب الملاكمة.

وقف على حلبة المصارعة سليم وشاب آخر أطول وأضخم لديه شعر أسود لامع كممثلي السينما وأعين رمادية كحيلة.

كلاهما يرتدي سروالا قصيرا من النايلون ويلكمان بعضيهما بحرفية.

لمح سليم هِيدى وشويكار تقتربان من الحلبة فتشتت تركيزه وسدد له زميله لكمة أسقطته أرضاً، فعلق المدرب: «براڤو صبري».

خلع صبري قفازيه ومد يده ليساعد سليم على النهوض ساخراً: «تعيش وتاخد غيرها، يا حدق».

نهض سليم ضاحكاً وخلع قفازيه متوعداً: «مردودة لك».

اقتربت هِيدى وشويكار فابتعد صبري وأخذ يراقب المشهد من بعيد.

- «شويكار؟ إيه المفاجأة الحلوة دي؟».

قالت هِيدى: «كنا بنجيب كتب وقلنا نعدي عليك... مش هتفسحنا بقى؟».

- «آه آه طبعاً، هغير وأرجعلكم تاني».

اتجه الشابان لغرفة تغيير الملابس ليستحم كلٌ منهما وأخذ سليم يدندن ببالٍ رائق:

- «أتصور حالي أيام وليالي مرت على بالي... ما بين نعيمي وأنسى الروح ساعة رضاك».

جلس صبري ليرتدي حذاءه متهكماً: «بتدندن لأم كلثوم.. الكراميلاية أم ضفرتين وا كلة عقلك .. علقتها منين دي»؟

- «اتحشم يا صبري، دي مش من بنات الشوارع اللي انت تعرفهم».

- «يعني مافيش ضحكة كده ولا همسة كده ولا لمسة كده».

أنهى ارتداء ملابسه ثم نظر له ساخراً: «خليك في حالك يا ذئب النساء يا وضيع».

- «بشوقك، بس لو عصلجت معاك ماتجيش تعيط لي».

***

تتابعت مشاجرات الجارتين - كريمان ودُرية - على أتفه الأسباب حتى اليوم الذي عاد فيه سليم وشويكار من فيلم فرنسي.

خرجا من قاعة السينما ذات الرائحة العطرة وتمشيا على الرصيف وشويكار تأكل باقي البوشار الذي اشتراه لها، كان متيماً بشكري سرحان آنذاك، وكان يشمر كُميه ويضع الكثير من الفازلين على شعره الأشقر ويترك خصلة كثيفة ملتوية تتدلى على جبينه.

ولكن شويكار لم تكن تحاول أن تبدو كفتيات الأفلام، فهي ترتدي ما تتكرم أمها وتبتاعه لها.

- «عجبك الفيلم؟».

- «جداً جداً، بس البطلة اسمها إيه؟».

- «مارتين كارول».

أخذت حبة بوشار أخرى: «مريم فخر الدين أحلى».

أمسك يدها بغتة قائلاً: «إنتِ أحلى منهم هم الاتنين».

ابتسمت خجلاً وأشاحت بنظرها بعيداً.

اقتربا من بنايتهما متشابكي الأيدي التي يسكنها كلاهما فرأتهما أمه درية الأناضولي - ذات النظارة 'كعب الكوباية' واللكنة التركية الغليظة واللسان السليط - من النافذة فاشطاطت غضباً.

دخلا ثم أغلق سليم باب العمارة خلفه وهمت شويكار أن تصعد السلم ولكنه سحبها من يدها إلى زاوية أسفل السلم فاضطربت قائلة: «في إيه، يا سليم؟».

أمسك طرف ضفيرتها وفكها برقة قائلاً:

- «شويكار، أنا تميت تمنتاشر سنة وبقيت راجل .. والراجل مايخافش يقول اللي في قلبه، مش كده؟»، أنهى فك ضفائرها ثم مشى بأصابعه بين خصلات شعرها الطويلة فاحمرت وجنتاها خجلاً وثار بركان من المشاعر بداخلها.

- «أنا بقيت روميو اللي مش بيقدر ينام غير لما يشوف جولييت ويقول فيها شعر»، لمعت عيناها فرحاً فأكمل: «عقلي مش بيفكر في غيرك، ده من كتر ما أنتِ شغلاني بقيت بتلخبط وأنا بنادي على هِيدى وبقولها، يا شويكار».

ضحكت فابتسم وأزاح خصلة من على جبينها وأرجع شعرها وراء أذنيها. اقترب بحذر شديد وهو يضع يده على وجنتها وكأنها مزهرية زجاجية قابلةً للكسر وبلا مقدمات، طبع قبلة مختصرة على شفتيها فأوقعتْ شويكار علبة البوشار أرضاً وتصلبت كمن صعقته الصاعقة وإذا بالأمر يزداد سوءاً.

- «أنت ڤلد».

انتفض سليم تاركاً حضن شويكار والتف ليجد والدته السمينة ذات الأعين الضيقة والمزاج المتعكر والعبوس الدائم صاحت بلكنتها التركية الساخطة التي تنطق فيها حرف الـ«و» 'ڤ'.

- «إزاي تتجرأ وتعصى أمر ڤالدتك؟!».

وضع شويكار خلفه فاحتمت بظهره وهو يجيب أمه: «آنّـا... من فضلك ماحصلش حاجة... إحنا كنا...».

- «أنت سليم ابن أهل السرايات وحاشية ملوك بتعمل إيه في الظلمات مع ابنة كريمان العاهرة ؟!».

اندفعت الأم نحوهما وجذبت شويكار من شعرها قائلة: «أنا هعمل ليكي فضيحة كبير».

تدخل سليم وخلص شويكار من يد أمه الصارمة، ففرت من قبضتها وإذ بصوت باب شقتها يُفتح وتخرج منها كريمان بقميص نومها.

- «بقى أنا عاهرة يا خدامة القصور؟».

- «صُك لسانك واحفظ أدبك وأنت بتكلم دُرية خانوم».

- «خانوم مين يا روح خالتك؟ ده أنتِ وأمك داخلين القصر حافيين، إيه يا دُرية لو ناسية أنتِ مين أفكرك، لو ناسية عملتي إيه في القصر أقولك، ولو عيالك يا حبيبتي مش عارفين الفضيحة اللي اتطردي بيها أنتِ وأهلك، أعرفهم».

تعجبت آذان سليم لما يسمعه فهمّ أن يرد ولكن استوقفته دُرية:

- «لما الستات يتخانقوا، الرجالة ما تتحشرش».

أكملت كريمان وصلة الردح: «مالك يا دُرية يا أناضولي نافشة ريشك علينا ليه؟ أش حال أن أمك كانت دادة وأبوكي سفرجي وأنتِ حتة خدامة».

- «شغل مش عيب، المهم نعيش بشرف مش عاهرات ساقطات مثلك».

ضحكت ضحكة رقيعة: «شرف؟! شرف مين أم شرف؟! الله يرحم أيام راس التين».

- «وضيعة، سافلة» بصقت دُرية أرضاً ثم صعدت لشقتها جارة سليم خلفها وصفعت الباب بقوة.

دخلت دُرية غرفتها منكسرة وظلت تبكي طيلة الليل، وهكذا كان حال شويكار التي ظلت تبكي بالقرب من النافذة حتى سمعت حركة غريبة فوجدت هِيدى تمشي حاملة حقائب سفر وبنهاية الشارع ينتظرها سيران بسيارته، فور أن رآها أسرع وحمل عنها الحقائب وركبا وانطلقا مسرعين.

***

استيقظت دُرية مع أذان الفجر. اتجهت للمطبخ وملأت كوبها ثم لمحت ورقة كبيرة في غير موضعها على الطاولة بالصالة.

قرأت ما كتب بها بالتركية بخط يد متحمس.

عذراً أمي، فالحب لا يعرف أي قانون.

اتجهت كالمجنونة لغرفة ابنتها فوجدت فراشها خالياً وخزانتها خاوية، صاحت في قهر

- «سليييييم.... سليييييييم».

***

ركض في الشارع بالبيچاما فلمحته شويكار من نافذتها ونادته بحذر فاقترب.

- «مش هتلحقها... ركبوا الأوتوموبيل ومشيوا».

صاح غاضباً: «هربت... هربت معاه».

ركل حصى الرصيف بقدمه في غضب ثم أخذ يلكم الحائط بعنف متمتماً كلمات تركية بدت كلعنات وسُبات بذيئة لم يرغب في أن تفهمها شويكار.

- «اهدأ، يا سليم هتجرح إيدك».

- «إزاي ماوقفتيهاش، لما شوفتيها بتتسحب زي الحرامية ماندهتنيش ليه؟! سبتيها تهرب عشان تعايرينا بهِيدى زي ما أمي بتعايرك بأمك، صح؟».

صمت كلاهما، هربت دموعها مصدومة فأدرك سليم حُمق ما تفوه به، نهضت من جلستها عند النافذة فاستوقفها قائلاً:

- «شويكار، أنا آسف... ما كانش قصدي».

أمسكت بطرفيّ الشباك الخشبي في يأس ودموعها تسيل من عينيها ولكن لسانها لم ينطق بكلمة. أغلقت النافذة في هدوء ثم غابت عن نظره.

***

مرت الأيام ثقيلة وهي لا تفعل شيئا سوى التحديق من النافذة ومراقبة المارة والبكاء على السمعة اللعينة التي ورثتها من أمها والتي ستكون سبباً في ضياع حبها منها إلى أن رأته يقف أمام شباكها بابتسامة ساحرة ولكنها لم تخف الإرهاق بعينيه.

وقفت لتغلق النافذة ولكنه جذب يدها: «وحشتيني».

دق قلبها ثانية ولكنها تصنعت الكبرياء وتمالكت ابتسامتها.

- «بابا رجع من إسكندرية لما بلغه خبر هِيدى، أتخانق مع آنّـا وقالها إن هِيدى هربت بسبب تعنتها وقسوتها وإنه

مش هيستنى لحد ما يخسرني أنا كمان وأهرب من البيت مع البنت اللي بحبها زي ما هِيدى عملت».

صمتت قليلاً: «يعني إيه؟».

- «يعني أنا وبابا عايزين نيجي نخطبك».

فتحت فمها في ذهول وكاد يقف قلبها من فرط السعادة.

***

وضعت كريمان أحمر الشفاه الداكن ومجوهراتها التي كان يهديها لها عشيقها وارتدت أغلى ثوب لديها ثم شربت كأسا من الجِن منتظرة حضور سليم ووالده بينما أتت شويكار مترجية:

- «ماما... أنا عمري ما طلبت منك حاجة، بس المرة دي بترجاكي... أنا مش عايزة حاجة من الدنيا غير سليم».

ابتسمت ساخرة: «هتفضلي طول عمرك مغفلة»، طرق باب الشقة فقالت: «ادخلي أوضتك».

- «حاضر، بس عشان خاطري بلاش تـ.....».

- «قولت اترمي في أوضتك».

دخلت غرفتها وتجرعت كريمان الرشفات الأخيرة من كوبها ثم اتجهت نحو الباب.

فتحت لوالد سليم، المنصوري الملامح ببدلته الأنيقة حاملاً علبة كعك فاخرة وخلفه سليم بباقة من الورود، يرتدي بذلة سوداء تزيد وجهه ضياءً.

ابتسم والد سليم البشوش قائلاً: «بونسوار، يا كريمان هانم».

أشارت لهم بتعالٍ أن يدخلا.

دخلا وجلسا على الأريكة المقابلة لمقعدها ووقفت شويكار خلف الباب تتابع بحماس عارم.

- «دُرية مستكبرة تدخل بيتي ولا إيه؟».

أجابها السيد أنور: «أبداً، هي بس مرهقة شوية، لكن إن شاء الله هتيجي في الزيارة الجاية... ما احنا بقينا أهل».

- «أنا لسة ماوافقتش».

- «وماتوافقيش ليه يا هانم؟ سليم ابني اتخرج من التوجيهية واتقدم لمدرسة الطب، وبإذن الله هيبقى دكتور في القصر الملكي معايا وبمهية توفر معيشة كريمة لبنتك المصون، وإلى حين تخرجه هنقعدهم في شقة معانا في العمارة وأنا هتكفل بكافة مصاريفهم» نظر لها بود وقال رابتاً على كتف سليم: «أنا ابني عريس مايتعيبش».

- «ابنك؟!» ضحكت بخلاعة فاضطربت ملامح الأب المحترم: «بس اللي أعرفه إنه مش ابنك، يا دكتور أنور».

عدلّ رابطة عنقه وثبت نظارته ثم أجابها بنبرة هادئة:

- «هو صحيح مش ابني، بس أنا اللي مربيه من وهو في اللفة».

- «بس أنا من حقي أعرف أصل وفصل اللي يحب يناسبني، ولا عايزني أجوز بنتي لعيل مجهول النسب».

نهض سليم صائحاً: «مين ده اللي مجهول النسب يا كريمان يا...».

أمسك أنور برسغ ابنه صائحاً: «سليم».

ابتلع سليم كلماته ولكنه لم يخف غضبه.

نهض الأب وعدل سترته بحزم: «ابني أنضف وأنبل راجل يقبل ببنتك، أنا مش عارف إيه اللي واصلك عن مراتي وابني .. أنا عارف عنك كتير ولولا الظروف ما كانش يشرفني أدخل بيتك، بس ربنا ابتلى ابني بحب بنتك وأنا ماقدرتش أكسر قلبه... بس الظاهر إنك مش عايزة بنتك تطلع من الوحل اللي انتِ عايشة فيه ولا تتخلص من سمعتك العطِرة».

صاحت فيه بسوقية وغضب: «برة يا راجل يا منحط يا قليل الحيا، طول ما أنا عايشة على وش الأرض ابنك ده مش هيشوف ضفر بنتي، سامع؟».

رمقها سليم بغضب فكررت: «سامعني، طول ما أنا عايشة مش هتطولوا بنتي».

ابتسم أنور ساخراً ثم خرجا وتركاها تصيح وتهلل وتكسر زجاجات الخمر ثائرة ساخطة.

بقت شويكار بغرفتها لا تصدق ما حدث للتو، فحديث السيد أنور وكريمان لم يستمر لأكثر من خمس دقائق... خمس دقائق كفيلة بأن تقطع كل آمالها.

ركلت كريمان باب غرفتها ودخلت ثائرة لتصفعها بقوة أسقطتها.

- «بقى أنا... أنا كريمان محفوظ أتهزق في بيتي من ورا كي؟! إنتِ تخلي خدامين القصور يبعتروا كرامتي؟ طب وديني لأَمسحهم من على وش الأرض، ورحمة أمي لأوديهم ورا الشمس».

خرجت من الغرفة وظلت شويكار ملقاة أرضاً تتأمل لوحة فريد وقد جرح خاتم كريمان الماسي شفتيها فدمت.

ظلت تحدق باللوحة لساعات طويلة، لم ترمش، لم تتحرك بل كانت بالكاد تتنفس حتى سمعت حصى تلقى على نافذتها، فلم تستجب وكأن الصدمة خدرتها.

نهضت نحو اللوحة، وضعت يدها على وجه الطفل باللوحة، سمعت سليم يناديها من خلف الشباك ولكنها تجاهلته واستدارت بنظرات مرعبة وقد لبستها تلك الروح الملعونة، فتحت الباب وخرجت منصاعة لها.

مشت بخطى بطيئة نحو غرفة كريمان، دفعت الباب بعنف فوجدتها نائمة في سريرها، فتحت النور فاستيقظت الأم ودعكت عينيها لتجد شويكار واقفة على عتبة بابها بنظرات مخيفة فنزعت الغطاء ونهضت متمتمة:

- «بسم الله الرحمن الرحيم».

حاولت الخروج من الغرفة فجذبتها شويكار من معصمها بقوة مباغتة وبدأت تهتز الأرض، طارت الأطباق وسقطت زجاجات الخمر متهشمة، شعرت كريمان بالفزع وصرخت:

- «في إيه .. في إيه؟».

بدأت حوائط المنزل تتشقق تدريجياً فهمست شويكار بصوت مرعب:

- «ساعتك جَت، يا كريمان».

اشتعلت النيران فجأة بالغرفة ثم أخذت ألسنة اللهب تتصاعد وتبتلع السجاد، فاستنجدت كريمان:

- «حريقة...إلحقونا».

حاولت الهرب فركضت نحو باب الشقة التي انتشرت النيران بكل أجزائها، وفتحته بأصابع مرتعشة وصاحت صوب أحدهم:

- «إلحقني».

جذبتها شويكار بغتة وثبتت عنقها بعنف نحو الحائط والنيران تعلو وتصطك جوعاً.

- «موتي».

دفعتها أرضاً فسقطت وقد صدمت رأسها بطرف الطاولة لتفقد وعيها والدماء تجري من جبينها.

تخدلت حواس شويكار وتبلدت أوصالها وهي تحدق بجثة أمها التي تأكلها النيران.

لتظل النيران تأكل كل شيء عدا لوحة فريد.

***

(6)

أطفأ حسين سيجارته بالمرمدة ونظر للدكتور وجدي الذي أعاد البايب إلى فمه ثم سأله:

- «يعني شويكار هي اللي حرقت أمها؟!».

- «وفقاً للقصة اللي هي مقتنعة بيها وبتحكيها فشبح فريد هو اللي ولع في البيت من خلالها لكن وفقاً للمنطق والواقع شويكار ماقتلتش حد... سبب الحريق هو كمية الخمور المدلوقة على الأرض ووقع عليها عود كبريت مشتعل أدى للحريق... مرضها اللي صور لها كل ده».

- «يعني شويكار مش ملبوسة؟».

- «عيب يا حضرة الظابط ده أنت متعلم .. الاضطراب النفسي لما بيسيطر على العقل بيقدر يقنعه بأي حاجة، بيقنعه

بإنه شبح أو قاتل متسلسل... زي ما مرضها أقنعها بإن النار ولعت من العدم... الحقيقة غير كده».

زفر: «طب ولما كريمان ماتت، شويكار راحت فين؟».

- «عمها جابها المصحة وبدأت علاجها بأدوية أدت لمفعول عظيم لفترة وبعدها طلعت وعاشت في بيت والدها القديم».

- «وماتجوزتش سليم ليه؟».

- «ماحدش كان يعرف إن شويكار في الخانكة، إنت عارف الموضوع ده حساس إزاي، ولسوء الحظ بعد وفاة كريمان بحوالي شهر قامت ثورة يوليو، وطبعاً لما الملك مشي بحاشيته استغنوا عن خدمات والد سليم، ولما طلعت شويكار من المستشفى مالقتش حد من عيلته. سليم وأسرته مشيوا وباعوا الشقة بدون مايقدر يشوف شويكار ولكنه ساب جواب على عتبة باب كريمان علّ شويكار ترجع وتلاقيه».

- « كان فيه إيه الجواب ده؟».

- «انتظريني».

***

القاهرة، 1957

نضجت ويفعت وقررت أن تصبح ممرضة على أمل أنه في يوم ستذهب لعملها بالمشفى، وتجد سليم يفتح بابها وقد أصبح طبيباً يرتدي البالطو الأبيض.

كانت تقرأ الجواب الذي تركه لها منذ أربعة أعوام، كلما استيقظت وقبل أن تنام لتتحس خطه.

انتظريني

انتظرت كثيراً ولم تمانع أن تنتظر لفترة أطول، ولكن الحنين والشوق قتلاها كلما دخلت السينما بمفردها ظانة أنها قد تراه هناك صدفة. فمازالت رائحته الذكورية في أنفها، وملمس يده على جلدها وهمساته بأذنها فكيف لها أن تنسى؟

- «شويكار؟».

استدارت من حالة النوستالجيا التي ابتلعتها لتجد الدكتورة عصمت ذات البشرة الخمرية والأعين المستديرة والشعر القصير ذي الغرة كثيفة.

- «ماروحتيش ليه معاد شغلك خلص من ساعتين؟».

- «هروح أعمل إيه؟ هقعد لوحدي أكلم الحيطان».

- «طب أنا عندي فكرة خطيرة، إيه رأيك تروحي حفلة؟».

- «حفلة إيه؟».

- «ابني استغل إن أبوه مسافر وأنا هبات عشان عندي كذا حالة ولادة فقرر يعمل حفلة مع صحابه في بيتنا... ماتروحي؟».

- «لا شكراً».

- «ماتبقيش كئيبة وتحبسي نفسك في الشغل والنوم .. إنتِ صغيرة والحياة لسة قدامك» غمزتها باسمة: «يلا، غيري وخدي البت مديحة وروحو سوا».

***

أوقف خطيب مديحة سيارته عند منزل دكتورة عصمت ليقلهما، أوقف السيارة، ولم تنزل مديحة أو خطيبها.

- «مش هتنزلوا؟».

استدارت لها مديحة.

- «لأ، إحنا هنسهر الليلة دي في جروبي».

- «طب ما كنتي قولتي لي يا مديحة. أنا مش عايزة أخش لوحدي».

- «أبلة عصمت حلفتني أوصلك، لو ما تبسطتيش روحي». التفت لخطيبها بفجاجة: «يلا يا ممدوح الحجز هيفوتنا».

انطلقا بالسيارة وتركاها مترددة أمام ذلك البيت ذي الطابقين والحديقة والمسبح، رأت الشباب يدخلون وإيقاع أغنية Tutti Frutti الصاخب يرج المكان فدخلت وسط الجموع الراقصة بمرح أكثر من اللازم وفى أيديهم كؤوس الخمور وأكواب الجعة.

ظلت تحوم كأنها تائهة حول المنزل، علها تجد وجهاً مألوفاً أو شيئاً يسليها حتى لمحت علبة سجائر ملقاة على المنضدة بجوار الباب، فتحتها ونظرت حولها لتتأكد أن ما من أحد يراقبها، ولكنه رآها بشعرها القصير وثوبها القرمزي الذي يكشف

ظهرها الأملس وهي تسرق سيجارة وعلبة ثقاب خلسةً ثم تنسحب من الصالة المكتظة بالشباب وتصعد السلالم الخشبية وصولاً للطابق الثاني حتى وقفت بالزاوية الهادئة بالممر قرب المرحاض.

وضعت السيجارة بين شفتيها وفتحت علبة الثقاب فوجدتها فارغة، لعنت حظها العثر وألقت العلبة جانباً.

- «تسمحيلي؟».

التفتت لتجد شاباً خمرياً مفتول العضلات وشعره اللامع كممثلي السينما، يحمل كأساً من الويسكي وينفث دخان سيجارته مخرجاً من جيبه مقدحته الذهبية.

أشعل لها سيجارتها ثم ارتشف من كوب الويسكي بيده بينما نفثت دخانها ونظرت له شاعرة أنه مألوفٌ لها.

نظر لها مبتسماً بثقة جذابة: «أنا شوفتك قبل كده مع هِيدي».

أضيئت عينيها حماساً عندما سمعت شيئا يتعلق بسليم.

- «إنت تعرف هيدي منين؟».

- «أنا صبري، كنت زميل سليم في نادي الملائكة وانتِ شويكار مظبوط؟».

- «مظبوط، بالحق... أنت...مابتشوفش سليم؟».

- «أنا كنت لسة هسألك نفس السؤال، من ساعة ما الثورة قامت ماشوفتوش ومابعتليش غير جواب قالي فيه إنه اتجوز وبعدها...».

صُدمت وبُهت وجهها وسألته بصوتٍ مهزوز بالكاد يُسمع:

- «اتجوز؟!».

- «آه. رجع تركيا واتجوز بنت خالته، إنتِ عارفة دُرية خانوم لما تصمم على حاجة».

وقعت الكلمات على أذنها وقع الصاعقة، أغرورقت عيناها بالدموع واعتلت الصدمة ملامحها فقالت في انكسار:

- «سليم اتجوز؟!».

تركته قبل أن يكمل كلامه ودخلت المرحاض بأيد مرتعشة.

أغلقت الباب خلفها، شعرت بالوهن فجثت على ركبتيها وخرت باكية بقوة أرعشت قلبها وزادت نبضاتها المتخبطة حتى كاد يخرج من صدرها.

تثاقلت أنفاسها وتصارعت نبضاتها والحزن ينهشها، أخذت تشهق باحثة عن هواءً يهدئ أنينها.

طرق صبري بابها قلقاً.

- «شويكار .. شويكار... إنتِ كويسة؟».

- «آه».

مسحت دموعها بأسى وأخذت بضعة أنفاس عميقة لتنظم نبضاتها ثم فتحت الباب.

تأمل عينيها الدامعتين وكحلها السائح وأنفها الذي احمر.

- «أنا آسف، أنا افتكرتك كنتي عارفة بجوازه و...».

سحبت كوب الويسكي من بين أصابعه وابتلعته كله في رشفة واحدة، ظهر على ملامحها التقزز من قوة المشروب الذي لم تذقه من قبل.

نظرت له بجموح: «عندك تاني؟!».

نزلا للطابق الأرضي وصبري يحمل زجاجة الويسكي يصُب في كوبيهما لتشرب كوباً تلو الآخر وتشعل سيجارة تلو الأخرى علها تنسى من طوى صفحتها من حياته.

لينبعث صوت إلفيس برسلي على موسيقى ذات إيقاع سريع فبدأت تهز قدمها لا إرادياً وتميل بينما حرك صبري قدميه برشاقة وسرعة مقلداً حركة إلفيس الشهيرة وهزّ أصابعه ويديه كأنه ممسكاً بجيتار مغنياً كلمات الأغنية التي يحفظها ظهراً عن قلب وجذب يدها نحو ساحة الرقص فانطلقت معه في حماس وتركت جسدها ينطلق مع الإيقاع واستسلمت ليديّ صبري الذي ظل يلفها بخفة ويحملها بذراعيه الشديدين فتمايلت ودارت وهزت كتفيها وخصرها وساقيها لتكتشف للمرة الأولى أنها تجيد الرقص.

تأخر الوقت وهمّ الشباب بالرحيل، بينما ظلا بالحديقة عند طرف المسبح تصاحبهما زجاجة الويسكي

- «وأنت بقى بتعمل إيه في حياتك غير الحفلات؟».

- «أنا ملاكم»، فرد عضلاته البارزة من أسفل قميصه المقلم: «بطل الجمهورية ست مرات».

- «واااااو».

سحبت شويكار زجاجة ويسكي منه وهمت أن تشرب فاستعادها صبري قائلاً:

- «مش كفاية؟».

ضحكت واستلقت على ظهرها على العشب ونظرت للسماء الداكنة التي تنيرها نجوم بعيدة فاستلقى صبري بجوارها: «أنا مبسوط أوي».

همست بابتسامة مهزوزة: «وأنا كمان مبسوطة... مبسوطة عشان عرفت إن... إن سليم اتجوز».

قطب حاجبيه ثم نظر لها ليجدها قد بدأت تبكي. وضعت يديها على وجهها لتخفي بكاءها الصاخب.

- «قالي استنيني .. أربع سنين، أربع سنين مستنياه يرجعلي وفي النهاية طلع بيخدعني».

وضع صبري يده على وجهها ومسح دموعها بحنان فصمتت حتى اقترب منها بنظرة ثاقبة ففهمت ما ينتوي فعله، أمسك بذقنها واقترب منها حتى شعرت بأنفاسه الساخنة على شفتيها فدفعته برفق ولكنه جذبها نحوه وكأنه أقسم أنه سيقبلها تلك الليلة.

صاحت به: «ابعد».

نهضت بسرعة وهمت أن ترحل ولكنه نهض خلفها وجذبها من رسغها بقوة فتعثرت مترنحة وسقطت أرضاً فاقدة الوعي.

***

تسلل النهار بين الستائر المخملية، فتحت شويكار عينيها ثم سحبت الوسادة الناعمة ووضعتها على وجهها وانقلبت على جنبها ولكنها لمحت شيئاً.

رفعت الوسادة عن وجهها ثانية ثم فتحت عينيها، كانت بغرفة لا تعرفها وسرير لا تألفه.

نزعت عنها الغطاء مفزوعة فهي لا تذكر سوى صبري وصوت إلڤيس والكثير من السجائر والويسكي.

انتفضت عن سريرها وهرعت خارجة فوجدت نفسها مازالت ببيت صبري بالممر الذي كانت تدخن به أمس.

خرج من المرحاض مرتدياً روب الحمام ومجففاً شعره الكثيف بالمنشفة مدندناً أغنية لإلڤيس رقصا عليها بالأمس فدفعته بعنف وهي تصيح بسخط: «إنت عملت إيه؟».

- «عملت إيه؟!»، استدرك ما تعنيه: «إنتِ قصدك....؟ لا لا لا، يا حلوة أنا ماعملش كده مع واحدة مش في وعيها، المسائل دي بتبقى بالتراضي» قالها غامزاً.

صاحت به: «أومال أنا بعمل إيه هنا؟».

سمعت صوتاً مألوفاً يقترب: «يا صبري الـ...»، كانت الدكتورة عصمت مرتدية ثوب نومها الوردي وفي يدها فنجان القهوة، نظرت لشويكار باسمة: «إنتِ صحيتي، يا حبيبتي؟!».

بلعت ريقها بصعوبة وتمنت أن تنشق الأرض وتبتلعها وألا تراها السيدة عصمت بهذا الوضع المخزي.

- «دكتورة عصمت... هو، هو صبري يبقى ابن حضرتك؟».

نظرت له معاتبة: «كده ماتقولهاش».

- «أنا هلبس على ماتفهميها اللي حصل عشان طلعت منخولية عـالآخر».

رحل وتركهما، فضحكت عصمت وهي تقدم فنجان القهوة لشويكار قائلة: «اشربي، هيودي الصداع»، أخذت الفنجان مرتبكة فأردفت عصمت: «أنا رجعت من الشغل لقيتك نايمة في الجنينة من كتر الشرب ومش في وعيك خالص، فقلت مايصحش نسيبك وإنتِ في الحالة دي، دخلتك أوضة الضيوف».

- «أنا... أنا مش عارفة أودي وشي منك فين».

- «ليه؟ إحنا كنا شباب وبنخرج ونرقص ونتبسط. ده أنا شبابي كله كان حفلات عشان كده مابحبش اخنق على صبري».

نادى صبري من أسفل: «يلا يا جماعة، جعان».

- «يلا قبل ما يشطب عـالسفرة كلها».

***

صارت علاقتهما مزيجاً من الصداقة والحب غير المعلن، علاقة كانت شويكار تحتاج إليها كي تضمد جرحاً غائراً لا زال يبكيها ليلاً، لذا تركته يتسلل لحياتها حتى كانا بإحدى الحفلات الصاخبة بمنزل صديقه عامر، رقصا ثم جلسا على أريكة يشربان ثم ذهب صبري للمرحاض وترك شويكار برفقة زميلتها مديحة التي ظلت ترمقها بحسد وغيظ، فهي تحقد عليها منذ أن تركها خطيبها وتزوج إيطالية سافر معها إلى أوروبا ونسي أمرها.

- «ربنا يرزقك باللي أحسن منه» قالتها شويكار محاولة أن تجبر بخاطرها.

- «هو في أحسن من ابن دكتورة عصمت؟ وقعتي واقفة، يا بنت المحظوظة».

فزفرت شويكار منزعجة وهمت تنهض ولكن اقترب منها شابٌ نحيلٌ سمجٌ يراقبهما من الزاوية بأعين ناعسة وصوت ولهان، فلمحته مديحة.

- «وده ماله ياختي، متنح كده ليه؟».

- «تلاقيه بيعاكسك، يا مديحة».

- «تفتكري؟» عدلت شعرها وأنزلت ثوبها حتى تكشف نهديها أكثر.

اقترب منهما حاملاً كأسه وقال متنحنحاً: «بونسوار يا مادموازيلات».

تحمست مديحة: « بنسوار خالص».

نظر لشويكار ووجه غزله لها: «سبحان من صور».

- «مش هترقصي يا مادموازيل؟».

- «من فضلك، أنا مع حد».

- «ده مين الأناني اللي استأثر بالجمال ده كله لوحده».

نهضت منفعلة لتبتعد عنه ولكنه أمسك رسغها بقوة فدفعته بعنف، وإذا بها تُصدم بصبري خلفها يلكم المتحرش لكمة محترفة أطرحته مغشياً عليه فسكت الجمع ووضعت شويكار يدها على فمها في دهشة ناظرة لذاك الشاب الذي

فقد وعيه بغتة فجذبها من يدها خارجين بينما اجتمع الشباب حول فاقد الوعي وقد تكهرب الجو.

خرجا للحديقة الخلفية للمنزل فقالت له بتوتر:

- «ما كانش في داعي تضربه و...».

- «عايزاني أشوف واحد بيتثاقل عليكي وأسكت؟».

ابتسمت شاعرة بأنوثتها الطاغية فأردف بابتسامة مغازلة: «راجل أنا ولا مش راجل يعني؟».

ضحكت فأحاط خصرها واقترب منها ليقبّل وجنتها ثم اقترب وكادت شفتاه أن تلمثا شفتيها وإذ بها تتذكر قبلتها الأولى وتطغى رائحة سليم على حواسها وتضربها الذكريات بعنف، وكأن صاعقة تجلد ظهرها فانتفضت وتملصت من شفتيّ صبري وأشاحت بنظرها بعيداً.

أنزل يديه عنها زافراً بغضب فهمست:

- «آسفة».

- «أنا عايز مبرر يخليكي مش طايقة إني ألمسك» صاح بها ساخطاً: «إنتِ عارفة كام واحدة تتمنى إن أقولها بس صباح الخير؟».

- «صبري، إنت مكبر الموضوع، أنا مش عايزة نعمل كده».

صرخ بها: «مش عايزة؟» أمسكها بعنف ودفعها نحو الحائط بشراسة: «أنا ماحدش يقولي لأ».

أحكم قبضته عليها وحاول أن يقبلها عنوة، فصرخت وحاولت أن تدفعه ولكنها لم تتملص من بطل الجمهورية بسهولة فأخذت تطوح رأسها يميناً ويساراً حتى لا يتمكن منها ثم بصقت بوجهه فترك يديها ومسح وجهه ولم يدرك نفسه إلا وهو يصفعها بقوة فسقطت وهي تسمع طنيناً بأذنها وتشعر بحريق في شفتيها وبدأت تبكي.

نظر لحالها وأشفق عليها وبدأ إحساس بالذنب يتسلل إليه.

- «أنا آسف».

جثا على ركبتيه بجوارها ووضع يده على كتفها ولكنها تكهربت ظانة أنه سيضربها ثانية فانتفضت ودفعت يده ولكنه أردف: «خلاص، أنا آسف .. أنا مش عارف عملت كده إزاي».

وضع يده على رأسها ومسح دموعها: «أوعدك إن ده مش هيتكرر تاني».

دفعت يديه: «ما تلمسنيش، أنا مش عايزة أعرفك تاني».

- «أنا بحبك .. والله بحبك بس بتقهر لما أحس إنك مش بتبادليني نفس المشاعر»بدأت تنصت إليه: «أنا بنظرة كنت أجيب أى واحدة راكعة ... بس إنتِ غير».

توقفت عن البكاء بينما وضع يديه على كتفيها وتكلم بصدق: «أنا من ساعة ماعرفتك وعيني مابتروحش لغيرك مابعرفش أنزل عينى من عليكى، أنا حاسس إنك كفاية... إنتِ كفايتي».

قبّل جبينها: «أوعدك إني عمري ما هأذيكي ولا أعمل حاجة تزعلك تاني .. أنا عايز أقضي باقية عمري معاكي».

هدأت ولانت، فعندما قرأ هذا أردف: «تتجوزيني؟».

***

(7)

في بضعة أشهر صارت حرم بطل الجمهورية صبري السيد أحمد، ثم وجدت نفسها بقطار الإسكندرية لقضاء شهر العسل وصبري يخلع عنها فستانها بحماس ليقطف ثمارها التي ظفر بها بعد انتظار، ثم يدير ظهره ويتجه للحمام فارداً ريشه كطاووس بموسم التزاوج وهنا تبدأ في البكاء.

لم تحتمل فكرة أن جسدها صار ملك رجل غير ذاك الذي حلمت به وإذ بتلك الفكرة تبتلعها.

انتهى شهر العسل وعادا ليمكثا بغرفته ببيت أهله وقد حولا غرفة نومه لعش الزوجية.

استعد صبري للذهاب لتمرينه تهيئة لبطولة الجمهورية التي اقترب موعدها، بينما كانت شويكار تعد له حقيبة التمرين وقف خلفها صبري ناظراً لها بغضب لم تفهمه.

- «إيه ده؟».

استدارت لتجده يمسك صندوقاً خشبياً صغيراً تعرفه جيداً.

اضطربت وبلعت ريقها بصعوبة وهيأت نفسها لتجيبه:

- «إنت بتفتش في دولابي ليه؟».

لم يمهلها ولم ينتظر إجابتها، صفعها بقوة فتكومت بالزاوية وصاح فيها:» إيه ده؟ ها؟ إيه ده؟».

جذبها من تلابيبها وضربها ثانية وثالثة فظلت تصيح مستغيثة بين صفعاته حتى دخلت عصمت عليهما وجذبت صبري من فوقها بصعوبة آمرة.

- «قوم...سيبها».

- «إتفرجي... الهانم مجمعة جوابات الغرام اللي بينها وبين سليم وتذاكر الأفلام اللي دخلوها ومخبياهم في دولابها... شايلة حاجات راجل غريب في بيت جوزها..في بيتي أنا».

رمقتها عصمت بغضب بينما أكمل صبري: «عارفة اتلخبطت كام مرة ونادتني باسمه وهي في حضني؟ عارفة كام مرة حلمت بيه وهي نايمة جانبي؟».

ظل ينظر لها بقهر وهي تبكي متكورة كالهرة الضالة، ركل الكرسي الهزاز بالزاوية وهشم المزهرية: «أرجع مالآكيش في البيت».

خرج ثائراً بينما ظلت شويكار تبكي في رعب، كانت المرة الأولى التي يضربها منذ أن تزوجا، ولكنها أيقنت أنها لن تكون الأخيرة.

نظرت لها عصمت ثم قالت بحزم: «أنا بعتبرك بنتي، بس صبري هو ابني اللي طلعت بيه من الدنيا»، رفعت سبابتها وقالت بنبرة لم تسمعها منها شويكار من قبل: «...لو ماتعدلتيش وفضلتي سبب في كسرة قلب ابني، أقسم لك إنه ما هيكفيني عمرك... مفهوم؟».

***

كان ذاك الشجار بداية الكوارث.

بعده بيومين، ألقي القبض على والد صبري بتهمة الاختلاس من وزارة الشئون الاجتماعية، فقد أُثبت أنه كان ينهب أموال اليتامى والأرامل لأعوامٍ طويلة، فلم يحتمل قلبه المسن فمات بأزمة قلبية ليلة أن حُبِس.

من هول الصدمة دخلت عصمت في غيبوبة لأسبوعين ثم استيقظت وقد وهن بدنها وضعف جسدها ولم يفارق الحزن عينيها على زوجها وحبيبها وابن عمها الذي عاش مختلساً ثم مات ليترك لهما تلك السمعة السيئة التي دمرت حالة صبري النفسية فأكثر من الخمور التي تحثه على افتعال شجار مع شويكار ينتهي دائماً بضربها بشكل مبرح، حتى دخل بطولة الجمهورية بمعنويات محطمة.

سدد لكمة وتلقى أخرى أطرحته فنزل خصمه بكل قوته على كتف صبري فصاح الأخير متألماً.

عد الحكم عداته الثلاثة، حاول صبري النهوض ولكنه شعر بثِقل وخِدر بكتفه، صفر الحكم، صاح الخصم ظافراً، رفع يديه في فخر، نهضت الجماهير المهللة، ظل صبري أرضاً.

أصيب بخلع في كتفه تم تجبيسه بطريقة خاطئة مسبباً خللاً بعظامه نخرج الطبيب بعبارة أنهت مسيرته فذبل شبابه مبكراً وظهرت شعيرات بيضاء بذقنه ثم زاد الأمر كآبة بعد وفاة والدته بغيبوبة سكر فدفنها وبكى على قبرها ثم اتجه إلى الحانة وشرب حتى أصبحت عادة أن يرجع منزله مترنحاً يكسر ويحطم الأثاث، ويجمع شهادات التقدير وميدالياته الذهبية ويلقي بهن في المدفأة ويجلس يشاهدهن يحترقن وينصهرن ثم يظل يبكي لساعات بحرقة لا يشعر بها أحد سواه، فلن يشعر بألمك غيرك.

صار يرى في شويكار مايذكره بعجزه، تلك التي لم يقو على اقتلاع حبها القديم من قلبها، كلما رآها يشعر بضعفه، كلما نظر لها يرى سليم في عينيها ويزداد جنوناً عندما تبكي بعد معاشرته وكلما خلا بنفسه يرن صوت أنينها بأذنه، من تلك التي تبكي بعد أن يعاشرها صبري بطل الجمهورية؟

نهض وقد لعبت الخمور بأفكاره فاتجه لغرفة نومها حيث كانت نائمة متعبة من يومها الطويل والمرهق بالمشفى.

فتح الباب بعنف فاستيقظت مفزوعة.

- «في إيه؟».

وقف يخلع ملابسه بالزاوية ثم اتجه للسرير ليخلع عنها ملابسها ولكنها صرخت:

- «لأ».

جذبها من ساقيها حتى لا تهرب واعتلاها بشراسة.

صاحت بعنف: «صبري إنت سكران» دفعته مترجية: «سيبني، يا صبري».

رطم رأسها صوب الكومود بعنف فظلت تصيح وتصرخ وإذ به يكتم فمها وهو يصيح بشكل هستيري

- «كفاية عياط .. أنا ماحدش يبقى معايا ويعيط .. كفاية».

لم يكن بها ما يكفي من القوة لتحمي نفسها فظلت تحملق بالسقف بينما ينهشها كما ينهش الضبع فريسته حتى فرغ منها ونهض عنها متجهاً للحديقة ضاحكاً كالمجنون ثم قفز بالمسبح منتشياً عاوياً كالذئب.

ظلت على هذه الحال بملابسها ممزقة والكدمات تملأ جسدها الضعيف والدموع محتقنة بعينيها وهي تحدق بالسقف حتى سمعت صوتاً مألوفاً يناديها، فنظرت بجوارها لتجده نائماً بجواره على السرير.

للمرة الأولى بعد حريق جثة أمها، رأت فريد يربت على وجهها فابتسمت له واطمأنت.

***

كانت ترتب غرفة أحد المرضى وإذا بفريد يظهر على السرير مؤرجحاً ساقيه وكأنه يخاطرها بفكرة معينة ولا تعلم كم مر من الوقت وهي تحدق به وتفكر بكلماته، وإذا بها تشعر بيد دافئة على كتفها وصوتٍ مألوفٍ يهمس: «كيكي».

وجدته ولم تصدق فظنت نفسها تهلوس، شعره الأملس، عيناه اللامعة وملامحه الدقيقة.

بعد غياب تسع سنوات أتى إليها بالبالطو الأبيض كما كانت تحلم وقد صار بشارب كث ويرتدي نظارة نظر.

خرج صوتها بصعوبة: «سليم؟!».

ضمها بين ذراعيه فبكت وأخذت تهتز بين ذراعيه باكية بحرقة إلى أن رجعت لها الذكرى وتذكرت أنه خدعها وتزوج غيرها وعلقها به لسنوات فدفعته صائحة في سخط.

- «رجعت ليه؟ عايز مني إيه بعد ما سبتني واتجوزت؟».

- «مين قالك كده؟!».

- «صبري».

- «صبري؟! صبري بتاع نادي الملاكمة؟».

- «أيوة».

- «ده إنسان كداب وطول عمره بيحقد على علاقتي بيكي» أمسك يديها فذابت: «مش مهم دلوقتي، المهم إني لقيتك، النهاردة أول يوم تعيين لية ولما لمحتك داخلة الأوضة، ماصدقتش... ماصدقتش إنك قدام عينية أخيراً».

تلعثمت: «سليم أنا و....».

نظر لها بحنان: «أنا آسف إني سمحت للدنيا تفرقنا كل السنين دي بس والله ما كان بإيدي، أنا مريت بأسوأ

ظروف ممكن حد يمر بيها، المهم دلوقتي حالتي المادية بقت عال ومافيش حاجة تمنعنا نتجوز .. أنا بحبك».

ولم تكن تعلم شويكار أن مديحة من وراء الباب الموارب كانت تراقب سليم يقترب من شويكار ويقبلها كما اعتادا أن يفعلا بمراهقتهما.

***

سحب كأس الويسكى وارتشفه وأخذ ينظر لتلك الشقراء العارية التي تمر أمامه بالمنزل باحثة عن قنينة الجِن بينما رن هاتف المنزل، فأجاب بعد فترة.

- «آلو، أستاذ صبري، أنا مدموازيل مديحة، زميلة شويكار في المستشفى».

- «شويكار مش في البيت، هبقى أخليها تطلبك».

- «لأ، أنا طلباك أنت مخصوص».

- «ليه؟».

- «في جراح جديد اتعين في المستشفى... أنا والله لولا معزة أبلة عصمت عندي ماكنت بلغتك بالأمر».

- «آنسة مديحة ممكن تختصري عشان مشغول؟».

- «أنا دخلت الأوضة لقيت المدام والدكتور الجديد يعني...» اضطربت ملامح صبري: «الصراحة مكسوفة أقولك».

ضغط على الكوب الزجاجي وقد تشنجت ملامحه.

- «أستاذ صبري، حضرتك معايا؟».

- «اسمه إيه الدكتور ده؟».

- «سليم... سليم أنور».

تهشم الكوب في قبضته.

***

عادت إلى بيتها وقد بكت طوال الطريق بحرقة بسبب حظها العاثر.

همت أن تفتح الباب فوجدت تلك الشقراء الطويلة تخرج من منزلها، نظرت لها بذهول ولم يكن هناك داعٍ لتسألها عن هويتها أو سبب قدومها إلى بيت زوجها فالأمر كان جلياً.

دخلت فوجدت صبري جالساً على الأريكة ويده ملفوفة بشاش ملطخ بدمائه ووجهه لا يبشر بخير.

- «كنتي بتعملي إيه مع سليم من شوية؟».

ارتعشت وأسرعت خطواتها علّها تسبق لغرفة النوم وتوصد الباب ولكنه كان أسرع.

ألصقها بالحائط فزادت رعشتها وغطت وجهها لتتجنب ضرباته القادمة ولكنه أنزلهما قائلا ببرود:

- «أنا مش هضربك، إحنا هنتكلم كزوجين متحضرين، سليم رجع وانت بتحبيه، إيه المشكلة؟ واحدة بتستكرد جوزها مع عشيقها .. أَنا مش شايف أى أزمة».

أجابته بنبرة مهزوزة: «ليه كدبت وقلت لي إنه اتجوز؟».

زفر بهدوء ثم همس لها: «عشان بحبك».

لكمها فهوت.

***

مشى سليم بممرات المشفى حتى أوقفته مديحة قائلة بخبث:

- «بتدوّر على حد، يا دكتور؟».

- «مظبوط، في ممرضة هنا اسمها شويكار عبد الحي، شوفتيها؟».

- «آه، جوزها طلبها فراحت له».

- «أفندم؟ جوزها؟!».

- «هو حضرتك مش عارف انها متجوزة صبري بطل الملاكمة من ييجي خمس سنين؟».

غلى الدم في عروقه وتبدلت ملامحه من الصدمة.

***

ظل يلكمها حتى لهث.

- «مش كفاية؟».

قالتها بصوتها الغليظ المرعب فتوقف عن لكمها ونظر حوله لاهثاً ليجد المتكلم، دفعته بقوة فسقط على ظهره، نهضت ومسحت الدماء التي خرجت من أنفها وشفتيها التي شُقت، نظرت له بعينيها المتورمتين واتجهت صوبه ثم اعتلته وهو تحت تأثير الصدمة.

- «بتحب العنف، مش كده؟».

لكمته بقوة ملاكم محترف، حاول أن ينزعها عنه ولكنها كانت قوية وثابتة بطريقة لا تُعقل.

استمرت في لكمه حتى سالت الدماء من أنفه بغزارة، فتوقفت.

مالت عليه وهمست بأذنه: «يومك قرب».

عضت شحمة أذنه بعنف، أخذ يصيح ويلكم جانبيها وصدرها كي تنهض عنه ولكنها ظلت تعضه حتى انسابت دماؤه وانتزعت مضغة من شحمة أذنه واسترخت ناهضة عنه.

نظر لها في رعب، عينيها، وجهها المتورم، دماء أذنه السائلة من بين أسنانها... لمحت رعبه وإذا به يصرخ فوضعت إصبعها على شفتيها:

- ((هششششششش)).

ثم ضحكت بطريقة شيطانية فخرج من المنزل فزعاً ناجياً بحياته.

بصقت دماءه القذرة ومسحتها عن فمها ثم جلست بالزاوية مسندة رأسها بالحائط وأغمضت عينيها وهي تهز رقبتها يميناً ويساراً شاعرة بالنشوة.

***

(8)

خرج حسين من عيادة دكتور وجدي محبطاً، فهو لا يبالي إن كانت شويكار مريضة أم ملبوسة، وارتكبت تلك الجرائم وهي في وعيها أم لا، المهم هو إثبات إن كانت قد قامت بها من الأصل.

دخل مكتبه عابساً فتبعه أحد مساعديه قائلاً:

- «تقرير خبير الخطوط طلع»، وضعه أمامه: «في تطابق تام بين الخط اللي في دفتر مذكرات شويكار اللي جوزها اداهولنا وبين الخط اللي بيتكتب بيه على الحيطان بعد كل جريمة. الخبير قدر يحدد إن ده خط واحد أشول بيعاني من اضطراب نفسي».

- «يعني مرتكب الحداشر جريمة إنسان واحد وهو نفس اللي كتب المذكرات اللي سليم إدهالنا... يعني شويكار».

- «مظبوط، يا فندم».

طرق العسكري باب المكتب بقوة فسمح حسين له بالدخول.

- «حسين بيه... في بلاغ عن جريمة قتل جديدة».

***

انبعثت رائحة غازات كريهة لا تُحتمل وملأ الريم المسبح السيراميكي بحمام القتيل.

لم يجدوا جثته، كُتب فقط على حائط الحمام بدماء الفقيد وبخطٍ مهزوز:

أنا فقدت السيطرة كلياً

***

ذهب حسين إلى المشفى وأكد له الجميع أن شويكار لم تخرج من غرفتها منذ أن أتت.

دخل غرفتها فوجدها جالسة بهدوء تنتظره، وضعت ساقا فوق الأخرى وهي تهز قدمها بغنج ولم تلتفت إليه

- «فين جثة أدلار؟».

جذبت طرف تنورتها الواسعة، بدت أجمل وأهدأ، شعرها المصفف بعناية وملابسها ذات الألوان الزاهية.. لا يمكن أن تتخيل أنها قاتلة متسلسلة.

ضحكت ببراءة: «بيقولوا إني دوبته بمية نار .. مش عارفة .. أنا حتى ماعرفش حد من اللي قتلتهم غير صبري، صبري»
نظرت له باسمة: «هو الوحيد اللي أنا قتلته عشان نفسي»
ابتسمت بحماس بريء أضاء عينيها: «أحيكلك قتلته إزاي؟».

***

ديسمبر، 1960

فتحت خزانة الثياب وأخرجت بعض ملابسٍ صبري ورصتها بعناية في حقيبة سفره. وضعت الحقيبة جانباً ثم نزلت الصالة وأخذت تحمل الأثاث كله بعافية وتخرجه إلى الحديقة الخلفية وكذلك السجاد حتى صارت الصالة خاوية ولم تترك سوى الجرامافون بالزاوية والمنضدة المستديرة التي تتوسط الصالة بكرسيها، وغطت الأرضية الخشبية بمشمع كبير.

دخلت المطبخ بمعنويات مرتفعة وأخذت تدندن وهي تطهو في قدرٍ كبير وسيجارتها بفمها.

وضعت الطعام على الطاولة وأعدت زجاجة النبيذ الأحمر وأشعلت الشمعدان البرونزي.

صعدت إلى غرفتها وارتدت ثوباً اشترته خصيصاً لتلك المناسبة ووضعت قفازات من حرير وتزينت بأحمر الشفاه الذي يثير صبري وتعطرت ثم نزلت إلى الصالة وجلست على كرسي المائدة تنتظره.

بعد ساعة من الانتظار دخل صبري البيت وتفاجأ من اختفاء الأثاث وجلوس شويكار بهدوء على ذاك الكرسي ولكنها أسرعت ونهضت عن كرسيها وأخذت منه معطفه وقبعته وألقت بهما أرضاً فتسمر مكانه

- «آسفة عـالي حصل في اليومين اللي فاتوا... أنا كنت زوجة بشعة».

تردد، فلا تزال أذنه المعضوضة تؤلمه بشدة، أمسكت يده وجذبته برقة قائلة:

- «تعالا، أنا اشتريت لك إسطوانة إلڤيس الجديدة عشان نسمعها سوا».

سحبت الإسطوانة من على المنضدة ووضعتها في الجرامافون فانبعثت الموسيقى الهادئة وصعد صوت إلڤيس القوي مغنياً It’s now or never.، ألقت بنفسها بين ذراعيه قائلة:

- «إحنا ليه بطلنا نحب بعض؟».

- «أنا مش مرتاح، من إمتى الكلام ده و..».

- «هششششش .. خلينا نرقص زي زمان».

أنهيا الرقص على الأغنية ثم تناولا العشاء.

صبت له النبيذ ولم تصب لنفسها، أكل حتى ملأ بطنه وشرب كأسا تلو الآخر وشويكار تنظر له بحميمية.

أنهى طعامه وأخذ رشفة أخيرة من كأسه ثم تثاءب واهتزت رؤيته.

رأى طفلاً... طفلاً أشقر، عيناه بيضاوان، يرتدي سروالاً قصيراً وقميصاً أسودً ويمشي بقدميه الصغيرتين على المشمع ويجر وراءه دمية ذات أعين مفقوعة.

دعك صبري عينيه وأخذ يتأمل الطفل قائلاً : «مين الـ... مين العيل ده، يا شويكار؟».

نظرت خلفها ثم قالت ببراءة: «ده فريد».

تثاءب: «فريد مين؟ .. أنا ليه نعسان كده؟».

- «عشان حطيت لك منوم».

كاد يغمض عينيه ولكنه قاوم النعاس بينما أردفت: «حطيتلك منوم في النبيت عشان ماتقاومش وأنا بقتلك».

فتح عينيه في دهشة ولكن شويكار لم تمهله، ضربته بالشمعدان المعدني فسقط على الأرض متأوهاً.

خلعت ثوبها بهدوء وعلقته بعيداً حتى لا تلوثه بدمائه واحتفظت بقفازيها الحريريين.

سحبت الساطور الذي خبأته أسفل الطاولة وظل فريد واقفاً يشاهد ما يدور بابتسامة رضا.

عجز صبري عن الكلام بينما اعتلته شويكار مبتسمة كالمخبولة قائلة:

- «أنا بعت جواب لعمتك في إسكندرية من يومين بإسمك» ضحكت وأكملت: «عزيزتي عمتو سعاد، لقد اشتقت إليكِ ولبحر الإسكندرية، لذا سأصل إلى بيتك خلال يومين، مع حبي، صبري».

رفعت رأسها مبتهجة وابتسمت منتشية، وقد طرقعت رقبتها وأحكمت قبضتها على ساطورها وهوت به فوق عنقه ففصلت رأسه عن جسده بضربة واحدة وانفتح شلال الدماء بوجهها.

صفت السوائل من جسده بفتح ثقوب بفخذيه ووضع خرطوم بها فأخرجت كل سوائله في دلو صفيحي.

سكبت السوائل بالمرحاض وسحبت السيفون ساكبة الفنيك.

نزلت وصوت إلڤيس يعلو من الجرامافون، بدأت تدندن على أنغامه وهي تقطع أطراف صبري وأخذت كماشة نزعت بها أسنانه وأظافره ووضعتها في وعاء ثم أكملت تقطيعه.

بعد أن انتهت من تقطيعه اتجهت للمطبخ وكسرت البلاط بمساحة متر في متر أسفل النافذة ثم أخذت تحفر

في الرمال أسفل البلاط على عمق مترين ونصف وألقت بأعضائه المقطعة بالحفرة ما عدا الرأس.

أخذت دلواً أفرغت فيه أسمنت وخلطته بالماء. سكبت الخليط فوق الحفرة وأخذت تبني حوض الورود الأسمنتي.

أمسكت الرأس وأزالت فروتها وأخرجت منها مخه وغسلتها بالماء ثم ملأتها بالطين الصالح للزراعة وغرست به بذورا لتطرح وروداً ملونةً.

وضعت الرأس بمنتصف الحوض الذي امتلأ بالطين ونشرت البذور ضاحكة ثم رشت الماء.

أخذت دلواً وملأته بالفنيك وألقت بالساطور والقفازين به وتركتهما بينما أخذت علبة الدهان والفرشاة وبدأت تدهن الحوض الأسمنتي باللون الأبيض وترسم قلوباً حمراء بوجه مبتسم وهي ترى فريد يرقص حولها ببراءة طفولية.

فرغت من حوض الورود وبدأت بالتنظيف، أزالت المشمع وألقت به بالبانيو لتنظفه كما مسحت أرضية الصالة والمطبخ بالماء والصابون والفنيك.

أعادت فرش السجاد ورص الأثاث بمساعدة فريد ثم أشعلت البخور لتعطر الجو.

دخلت الحمام وخلعت ملابسها الداخلية التي تلطخت بدماء صبري ثم وضعتها جانباً.

غنت تحت الدش ببالٍ رائقٍ كما لم تغن من قبل وأنزل الماء الدافئ المتدفق دماء صبريٍ مع الطين وبقايا الأسمنت. أغلقت المياه وسحبت منشفتها ولفتها حول جسدها المبتل وخرجت.

نزلت الصالة وتأملتها، رائحة النظافة النابعة منها، ذاك النظام والترتيب، وضعت يديها في خصرها بفخر ثم اتجهت صوب ثوبها الملقى بعيداً، ارتدته ونظرت من النافذة لتجد السماء تمطر بغزارة، التفتت فشعرت به بجوارها.

أمسك فريد الصغير يدها فابتسمت له بامتنان، بادلها الابتسام ثم أخذت معطف صبري وسحبت منه مفاتيح السيارة. حملت حقيبته ووضعتها بالأوتوموبيل ثم انطلقت.

قادت حتى الكورنيش الذي كان خالياً بسبب تأخر الوقت وبرودة الجو وشدة الأمطار الهاطلة.

ألقت بحقيبة سفره بالنيل وشاهدتها تطفو بابتسامة ظافرة ثم عادت للسيارة.

ظلت تدندن أغنية لا تتذكر اسمها، لم تكن بتلك السعادة يوماً، غنت وتمتمت وصفرت حتى لمحت فريد جالساً على الكرسي بجوارها، نظرت له مطولاً وقد واتتها فكرة جعلتها تبتسم بحماس فقد قررت أن تتجه إلى بيت سليم لتستيقظ بعدها عارية بسريره وتخرج مذعورة لا تتذكر شيئاً مما فعلته.

***

ابتسمت لحسين قائلة: «التفاصيل، السحر كله في التفاصيل».

- «طب وبقية الجثث؟ العشرة الباقيين راحوا فين؟».

أرجعت رأسها وارتاحت في جلستها قائلة:» تحب نبدأ بمين؟».

- «تشارلز روبنسون؟».

أغمضت عينيها ورأت مقتطفات من تلك الحادثة التي بدت ضبابية، وبدأت تقصها عليه: دخلت مزرعة تشارلز،

سحبت أربعة خنازير، وضعتها بقبو منزله الكبير خلسة دون أن يلاحظ أحد، تركتها ستة أيام ثم دخلت ترتدي قفازين، سحبت المُسِن وصولاً للقبو، فتحت الباب وألقته به فتدحرج على السلالم وأكلته الخنازير حياً، ظلت جالسة بجوار الباب تدخن سيجارة وتسمع صريخه حتى فرغت منه الخنازير، سحبت الأربعة المتخمة وأعادتها للحظيرة ثم حفرت حفرة على عمق مترين ونصف وألقت بها العظام التي لم تقدر الخنازير على أكلها ثم رحلت.

***

- «على عمق مترين ونص عشان الكلاب ماتشمش ريحته؟».

- «مظبوط».

أشعل سيجارة: «وأخوه ألبرت؟».

- «ماكانش صعب إني أستناه عند البار، أخبطه على دماغه، أرميه في شنطة العربية، أطلع بيه على مصنع مهجور من أيام الملك، أقطعه تمن قطع وأحط كل قطعة في كيس

وأحفر تمن حفر حوالين المصنع وفي كل حفرةٍ أرمي حتة... موضوع مجهد شوية بس اللي كان مرهق فعلاً هو چون ابن تشارلز» زفرت: «يا ربي، شاب عنده تلاتين سنة وفيه عافية مش طبيعية... أكتر واحد قاوم، بس بطريقة أو بأخرى قدرت أجره لكوخ في حتة ضحلة عند النيل... بيقولوا انها مليانة تماسيح يا حسين وفي أكتر من واحد اتاكل هناك، مسكت سي چون ده وكلته علقة موت وقطعته حتت صغنونة خالص خالص وحطيتها في جرادل وفضلت أعبي وأرمي في النيل، أعبي وأرمي في النيل... يا إما التماسيح كالته يا سمك بلعه يا اتحلل في المياة... مش عارفة، المهم إنه مابقاش موجود».

- «فين الكوخ ده؟».

- «ولعت فيه طبعاً. أكيد مش هسيب ورايا دليل».

- «يعني مافيش دليل على اللي أنتِ بتقوليه ده؟».

صاحت: «مش هتلاقي دليل على أي حاجة هحكيهالك، لازم يكون في بينا ثقة أكتر من كده يا حسين».

دعك عينيه ثم زفر قائلاً: «طب ليه؟ ليه تقتلي تشارلز وأخوه وابنه؟».

- «هم قالوا وأنا نفذت... كنت بصحى ألاقي وش اللي هقتله مرسوم على إيدي بالحبر. مأمورة إني أكمل».

- «تكملي إيه؟».

- «أكمل انتقامهم للآخر، خلوني أقتل تشارلز وألبرت وچون والرقاصة قوت القلوب، دخلت العوامة اللي هي عايشة فيها واستنتها، رجعت على وش الفجر من الكباريه، دلقت على وشهاماية نار وضربتها على دماغها فأغمى عليها قبل ما تصرخ، حطيتها في صندوق خشب كبير على مقاسها وصبيت فوقيها أسمنت وهوووب رميتها في النيل وفضلت تنزل تنزل تنزل لحد ماوصلت للقاع، الأسمنت التقيل عمره ما هيخلي الجثة تقب عالسطح من تاني».

- «وفاكر وشاكر؟».

مددت على السرير ووضعت ذراعيها تحت رأسها وأخذت تنظر للسقف مرددة:

- «الجرابيع دول كانوا بيضيعوا شباب مصر. لمعلومك، أنا قدمتلكم خدمة وطنية».

- «عملتي فيهم إيه، يا شويكار؟».

- « كان عندهم وكر، عشة كده عـالطريق الصحراوي بيتعاطوا فيها، دخلت، ضربت كل واحد فيهم طلقة في راسه، العشة كانت مبنية فوق إيه بقى؟» صمتت ونظرت له: «ماتقول إيه؟».

أجابها بفتور: « فوق إيه، يا ستي؟».

أجابت بمرح: «فوق الرملة، فضلت أحفر أحفر أحفر لحد ما طلعت روحي، رميت الجثتين على عمق كبير وردمت عليهم وبوووووم ولعت في العشة كلها».

دعك عينيه: «مش... مش حاسة أن الموضوع ده يعني بيتطلب قوى بدنية وأنتِ...؟».

صاحت به: «أنا إيه؟... أنا مش ضعيفة يا حسين، الموضوع محتاج ذكاء وثقافة، كل ما تقرا أكتر هتبقى أذكى وكل ما تبقى أذكى هتبقى لا تُقهر... بس عشان أنت مابتقراش كتير هتفضل كده... كرودية».

- « كرودية؟!».

- «نحكي بقى عن مين؟ عن مين؟ عن مين؟ إيه رأيك في الأسطا رضا الميكانيكى... أنا قعدت أفكر في طريقة فيها كده...» أطرقت قليلاً: «فيها فن، فيها أصالة وإبداع».

- «أصالة وإبداع؟!».

- «أومال؟ روحت له الورشة بلّيل متأخر بعد ما كان خلاص بيقفل، راجل أرمل عنده خمسين سنة هيموت على ست تعبره، ضحكة كده مع بصة كده دخلت عليه شايلة كيلو كباب وكفتة فيهم مُلّين، بعد ما أكل خبطته على دماغه وحطيته في برميل، خدته في العربية وطلعت على المقابر دفنته... دفنته حي».

- «مش فاهم حطيتي له مُلّين ليه؟».

ضحكت ساخرة: «مش بقولك كرودية... المُلين هيخلي بطنه تمشي عليه، خصوصاً أنه أكل زي الخرتيت، لما بطنه تسيب ويسهل جوة البرميل وهو حي الفضلات بتخلي الجسد يتلف ويتحلل... كانت طريقة من طرق التعذيب زمان»

تأملت السقف: «مش فاكرة قريت المعلومة دي فين؟ قرتيها فين، يا شويكار؟!».

- «وطبعاً مش عارفة المقابر فين».

صاحت: «أنت مُتعِب ليه؟ قولتلك مش عارفة ومش مهم أعرف، المهم أنت تَعرف أنا خلصت من الجثث إزاي».

زفر مستسلماً: «أحكيلي عن عباس البُرص؟».

ضحكت بهستيريا: «عباس ده موضوعه مضحك خالص، تعبت كتير على مالقيت مكانه، بس اللطيف إن هو أصلاً كان مستخبي في فيلا مهجورة عشان هربان من البوليس... بس أنا بلا شك أشطر من البوليس، لقيت مكانه وقطعته... ما التقطيع خلاص بقى هوايتي، بعد ما قطعته بقى، جبت حلة كبيييييييرة أوي وطبخته على نار هادية ورميته للكلاب السعرانة في الشوارع».

- «طبختيه؟!».

- «أيوة، طبخته بالزيت والملح والفلفل الأسود، ورميت لحمه للكلاب والقطط المسكينة».

دعك عينيه وأشعل السيجارة الرابعة بتوتر من بشاعة ما سمعه.

- «كملي».

حملقت بالسقف: «كده فاضل مين، يا سونة؟».

- «سرحان وفُتنة».

- «دول قليلين الحيا، تعرف إن فُتنة دي كانت، أستغفر الله العظيم، ويوم ما تابت بقت رفيقة سرحان، زي ما كريمان كانت رفيقة عبد السميع كده... الناس دول لازم نمسحهم من على وش الأرض...سفلة».

- «جثثهم فين؟».

تنهدت: «كانوا جايبين ڤيلا جديدة وفرحانين بقى وواقفين بيتفرجوا على البيت الجديد، ضربتهم على دماغهم وخنقتهم بإيدي، سديت رقبة الدفاية من النص بحجر وحطيت فيها الجثتين ودلقت عليهم ملح وتوم وحامض الليمون عشان يتحللوا من غير ريحة».

- «يعني لو روحت دلوقتي بيت سرحان الجديد هلاقي جثته وجثة فتنة في الدفاية من فوق؟».

أجابته بثقة: «oui».

- « كلامك مش منطقي، يا شويكار».

- «هو إيه اللي منطقي في حياتنا، يا حسين؟».

زفر، لا داعي للدخول في أي جدال أو نقاش حالياً.

- «طب وبعدين؟ مين الوش رقم تلاتاشر».

نظرت له بهلع وقد تغيرت كل ملامحها الهادئة الثابتة إلى ملامح مضطربة خائفة.

- «مش عارفة»، بكت بحرقة وانكسار: «مابقتش عارفة أسيطر على نفسي، أنا مش عايزة أقتل حد، تاني.. هم اللي فضلوا يوسوسوا لي زي الشياطين ويقولوا لي أقتل... أنا مش عايزة دم... أنا خايفة».

- «هم مين؟! ستات المصبغة؟».

- «أنا حامل، حامل وعايزة ابني يعيش حياة سعيدة».

- «إنتِ وابنك هتبقوا بخير».

- «التلاتاشر ست بتوع المصبغة، هم السبب... لما... لما قتلت صبري واتجوزت سليم وجبته يعيش معايا في البيت لقيت... لقيت لوحتهم ظهرت من عدم فِوق حوض الورد اللي دفنت فيه صبري، ماعرفش اللوحة جت إزاي ولا مين اللي رسمها وحطها، بس من ساعتها... من ساعتها بقيت بسمع هلاوس وناس بتقول حاجات غريبة، بدأت أقتل بدون مبرر، بصحى من النوم عندي شعور رهيب بالذنب... ببقى مش فاكرة التفاصيل، مش فاكرة نزلت إمتى ولا كنت لابسة إيه ولا حتى شكل الناس كويس..»، بكت بحرقة: «أنا سفاحة».

نهضت عن سريرها وجثت على ركبتيها أمام حسين وأخذت تبكي متوسلة:

- «أبوس رجلك إحبسني لحد ما أولد وبعدها إدو ابني لسليم واعدموني، اقطعوا لي رجلي وإيدي عشان ماهربش .. أنا مش عايزة... مش عايزة أقتل تاني».

***

(9)

مضت ليلة طويلة، كان يتم فيها التحقيق مع شويكار بغرفة ومع سليم بأخرى.

أعادت قص جرائمها الدموية ولكن تلك المرة بنبرة مهزوزة وأنفاس مكدودة وأعين باكية وأيدٍ مرتعشة.

ثار سليم وغضب وكانت كل إجاباته بالنفي، نفى غياب شويكار المتكرر واضطرابها الشديد في الآونة الأخيرة وفزعها وخوفها من تلك اللوحة ذات الثلاث عشرة سيدة.

أودعت شويكار بالقسم إلى أن تعرض على النيابة، وعاد سليم بيته ثائراً جامحاً يكسر كل ما يجده أمامه على حبيبته التي فقدها ولم تتح له فرصة توديعها.

***

تأخرت الساعة وظل حسين يدخن سجائره وحيداً بمكتبه حتى دخل إسماعيل متهللا.

- «ألف مبروك يا حسين بيه... خلصنا من القضية».

أجابه بفتور: «الحمد الله».

- «شكلك مش سعيد».

- «في حاجة ناقصة، يا إسماعيل».

- «زي إيه؟ ده احنا لقينا الجثث العشرة في الأماكن اللي قالتها بالظبط».

- «في كام حاجة مش داخلين دماغي. صحصح معايا كده: اللي قتل الحداشر شخص كان بيكتب جملة على الحيطة وخطه يتطابق مع مذكرات شويكار، يعني شويكار هي اللي قتلت الحداشر دول زائد صبري، مظبوط؟».

- «مظبوط».

- «اللي قتل العشرة اللي فاتوا هو نفس اللي قتل الدكتور الألماني النهاردة، صح؟».

- «صح».

- «وهو نفس اللي كتب على حيطة حمامه، يعني شويكار هي اللي قتلت أدلار وكتبت على الحيطة عنده وبعدها اعترفت .. بس وفقاً لتقرير خبير الخطوط المجرم كان أشول، يعني شويكار هربت من المستشفى وقتلت أدلار وكتبت على الحمام بإيدها الشمال».

- «صح كده».

- «لأ مش صح، إيد شويكار الشمال اتبترت يا إسماعيل وخبير الخطوط قال إن الخط اللي اتكتب بيه على الحمام

متطابق تماماً وماتغيرش فيه حاجة... يعني شويكار ماكتبتش مثلاً بإيدها اليمين».

- «إزاي فاتتني دي؟».

زفر حسين وأطفأ سيجارته والتفكير يهلكه.

***

بعد سبعة أشهر....

نام حسين قرير العين ككل أجازة بعد أن صدر الحكم بإيداع شويكار بمستشفى الأمراض العقلية بعد أن خضعت للجنة من الأطباء أقرت أنها مريضة عقلياً ولم تكن مدركة لأفعالها... فأودعت بعنبر الحوامل حتى تتم حملها.

دخل المرحاض وغسل وجهه بالحوض ثم رفع رأسه ناظراً للمرآة فوجد ما أفزعه.

جملة مكتوبة بأحمر شفاه بخط مهزوز: 13، ش. المنصورية، باب الشعرية، الجمالية.

دعك عينيه ثم رأى انعاكسها بالمرآة واقفة خلفه بفستان وردي وشعر لامع تضع أحمر الشفاه الذي كتبت به جملتها على مرآة حمامه ثم ابتسمت له ببراءة.

التفت خلفه فوجد شويكار تقف في حمامه ويدها اليسرى سليمة غير مبتورة.

تثاقلت أنفاسه واتجه صوب الباب لكنها تحركت بسرعة خارقة وأوصدت الباب لتمنعه من الخروج وبتلك الابتسامة

المريبة، وضعت إصبعها على شفتيها مشيرة له أن يصمت، أشارت خلفه، فالتفت مذهولاً ليجد ما زاد دهشته...

أخذ المكان حوله يتغير، اختفى الحوض والمرحاض ومربعات السيراميك واحدة تلو الأخرى حتى اختفت كل ملامح الحمام وأصبح في شقة خاوية مظلمة لا أثاث ولا سجاد ولا ستائر بها.

شقة غير مألوفة لا يتذكر أنه رآها يوماً فتلفت متوتراً حتى سمع طرقعة أصابع، نظر فوجدها تقف بجوار باب غرفة مغلقة.

- «إحنا فين؟».

أشارت له في صمت أن يفتح الباب، نفذ مطيعاً، فتح الباب بحذر، وجد غرفة فارغة من كل شيء عدا مرتبة مهترئة ولحاف مرقع وكرسي بدا أجدد وأقيم ما بها، ثم لوحة زيتية كبيرة معلقة على الحائط المشروخ.

اقترب من اللوحة، كان بورتريه لوجه شويكار في فترة مراهقتها ولها ضفيرتين طويلتين.

وقفت بجواره ثم أشارت إلى الإمضاء الموجودة بزاوية اللوحة، قرّب حسين وجهه ودقق نظره فوجد الاسم مكتوب بخط عثماني رائع.... سليم.

حملت اللوحة وأعطتها لحسين فوجد خلفها فجوة صغيرة بالحائط، مدت شويكار يدها بالفجوة وأخرجت كيسا من القماش به دفتر أسود صغير ورسائل كثيرة، أعطتها لحسين.

فتح حسين الدفتر، وجد به كلاماً مكتوباً بالتركية بخط منمق وفض الجوابات ليجدها مكتوبة بخط مرتعش غير منظم بالكاد يُقرأ كلها رسائل بها أشعار وكلمات حب موجهة من شويكار لسليم.

نظر لشويكار التي وجدها واقفة بجوار الكرسي المذهب فسألها.

- «دي جواباتك؟! خطك هنا مش شبه خط المذكرات اللي سليم اداهلنا».

أشارت له أن ينظر للكرسي، وضع الدفتر والجوابات واللوحة الزيتية جانباً واقترب من الكرسي الفرنسي التقليدي ذي التنجيد الملون لمنظر منزل على بحيرة زرقاء.

أعطته سكينا لا يعلم من أين أحضرته وأشارت له أن يفتح به بطن الكرسي.

أخذ السكين مستسلماً كالمسحور وشق قاعدة الكرسي وأخذ يقطع النسيج، أخرج الكثير من القش حتى لمس شيئا، أكياس بلاستيكية، سحبها فوجد بها أشياء صغيرة، رفع الكيس صوب الضوء فرآها بوضوح... كانت أسناناً.

مد يده أكثر فأخرج أكياس أسنان أخرى ثم أكياس بها أظافر دامية.

همست بأذنه: «13، ش. المنصورية، حي باب الشعرية، الجمالية».

أعادت عليه العنوان ثم فجأة سمع طرق باب وصوت زوجته سامية:

- «حسين؟ في تليفون عشانك».

فتح عينيه ونظر حوله ليجد كل شيء قد عاد إلى مكانه وأنه مازال واقفاً في حمامه الوردي.

اختفت شويكار واللوحة والدفتر والجوابات والكرسي والأسنان والأظافر.

خرج من المرحاض مضطرباً واتجه للصالة فوجد سماعة الهاتف مرفوعة، التقطها بأنفاس مضطربة.

- «أيوة».

أجابه إسماعيل: «حسين بيه، نقلوا شويكار عالمستشفى وولدت امبارح الفجر».

- «إوعى تقولي إنها هربت، يا إسماعيل».

- «لأ... إنتحرت».

***

لم يصدق أنها ماتت حتى رأى جثتها بنفسه في المشفى.

ربطت حبل الجلوكوز بقضبان النافذة الحديدية المرتفعة ثم لفت طرفه الآخر حول عنقها فتدلت قدماها بالهواء وأسفلها كرسي مقلوب.

***

(10)

نظر حسين لجثة شويكار ولسبب ما غمره شعور بالشفقة.

- «الوفاة حصلت إمتى؟».

أجابه إسماعيل: «الساعة تمانية اصبح».

أي قبل أن تظهر له بحمامه بساعتين، لقد رأى روح شويكار... ارتبك.

- «روح اسألي سليم زارها النهاردة ولا لأ».

- «حالاً، يا فندم».

ظل واقفاً حتى انتهى فريق المعمل الجنائي من عمله مؤكدين أنها عملية انتحار وما من أي شيء مريب بالمحيط.

خرج الجميع ولم يبق سوى حسين يحملق بجثة شويكار حتى شعر بحركة حوله، التفت فوجدها واقفة بجوار جثتها المتدلية، أشارت له صوب النافذة المفتوحة فالتفت وإذ بضوء الشمس يختفي وتصبح الغرفة مظلمة.

رأى شويكار نائمة بسريرها متعرقة الجبين ومرهقة البدن، ثم دخل سليم وجلس على السرير بجوار زوجته، مسح العرق عن جبينها باسماً ثم قبّل رأسها.

فتحت عينيها باسمة ثم همست بنبرة مكدودة: «ما كنتش بتيجي ليه الفترة اللي فاتت؟ أنا عندي حاجات كتير عايزة أقولها لك».

- « كنت بحاول اتعود على غيابك».

- «واتعودت؟».

- «مش عارف، مش عارف هقدر أعيش من غيرك تاني ولا لأ، أنا كل ما قول خلاص هستريح... الدنيا بتفاجئني وبتاخد مني اللي بحبهم».

- «بس الدنيا مش هي اللي خدتني منك، يا سليم».

- «قصدك إيه؟».

- «الدكتور مادانيش أي أدوية من ساعة مادخلت المستشفى عشان بتضر الحمل، تخيل إني أتحسنت؟ الهلاوس قلت ومابقتش أشوف فريد ولا بسمع صوت ستات المصبغة».

أمسك يديها بحماس: «إنتِ بتتكلمي بجد، يا شويكار»، «بس عارف؟ لما بطلت آخد الدوا بقيت فايقة وذهني صاحي وافتكرت... أفتكرت كل حاجة».

ارتبك: «أفتكرتي إيه؟».

- «أفتكرت ليلة ما كريمان ماتت. أنا كنت في أوضتي بكلم فريد، وانت سمعت كل كلمة قولتها. فتحت لك الشباك. إنت دخلت الأوضة، وأنا روحت لكريمان بعدها أنت طلعت الصالة ولما لقيت الخمرة كلها مدلوقة على الأرض ولعت كبريت ورميته والبيت ولع، طلعت من الباب وسيبته موارب ووقفت وراه، كريمان جريت على باب الشقة ولقتك واقف وقالت لك 'ألحقني' بس أنا شدتها ورميتها في النار، لما انت اتأكدت إن كريمان خلاص هتموت شلتني

وخرجتني برة الشقة قبل ما النار تمسك فية أنا كمان... بس أنا من الصدمة نسيت كل حاجة وافتكرت إن فريد هو اللي خلاني أقتلها».

- «شويكار، إنتِ واعية للي بتقوليه؟!».

- «من أول مرة كريمان طولت لسانها على أمك وانت حالف لها، ولما حلفت إن عمرنا ما هنتجوز طول ما هي عايشة وانت لقيتني بكلم فريد زي المجنونة الفكرة أغرتك أكتر».

ابتسم ساخراً: «تبطيلك للأدوية نكسك أكتر يا شويكار وخلاكي..».

- «إنت كنت بتديني أدوية هلوسة بتخليني أغيب عن الوعي وحالتي تسوء وأصدق حاجات غريبة، بس أنا مسمحاك، مسمحاك على أي حاجة انت عملتها».

تعجب: «هتسامحيني؟ بتقولي إن أنا اللي قتلت أمك واديتك أدوية غلط وهتسامحيني؟».

- «أنا مستعدة أديلك عمري كله مش إني أسامحك بس... لكن ده مش معناه إنك مش هتتعاقب».

- «أتعاقب؟».

- «أيوة، لازم تعترف بجرايمك زي ما أنا اعترفت بجريمتي، أنا قتلت صبري وأستحق أتعاقب بس إنت اللي قتلت حداشر واحد وأقنعتني تحت تأثير الأدوية إني قتلتهم... لازم نتعاقب عشان ربنا يسامحك، روح اعترف وهم مش هيعدموك، هيدخلوك الخانكة زيي وهتتعالج وهتخف، وإحنا الاتنين هنطلع ونربي ابننا مع بعض».

حاول أن يحجم ذلك الوحش الثائر بداخله وأن يسيطر على صوته حتى لا يعلو وينفضح:

- « كل اللي إنتِ شوفتيه في دنيتك مايجيش نقطة في بحر الذل اللي أنا دوقته في حياتي. أنا أتمرمطت وكل كلب من الكلاب دول يستاهل يموت بدل المرة ألف، أنا اللي وقفت ضد القدر وغيرت الواقع، أنا أثبت إن مش الغني القوي هو اللي بيكسب ويدوس على الضعيف وياخد حقه، أنا انتقمت لية ولعيلتي اللي شافت الويل، عايزة... عايزة بعد كل ده أقضي الباقي من عمري في السجن ولا في الخانكة وسط المجانين؟ ليه؟ عشان مين؟!».

- «عشاني... عشان ابنك يتربى بينا مش في دار أيتام».

- «مش هعترف، يا شويكار..إنسي».

- «يبقى أنا اللي هقول، يا سليم. مش هخلي ابني يتربى معاك وإنت كده».

- «عايزة تسجنيني؟ بعد كل ده، إنتِ اللي هتسجنيني؟».

- «ده لمصلحتك... إنت حبيبي ومهما حصل، ماقدرش أبداً آذيك».

ضحك ثم نهض بهدوء.

- «أنا سامحتك لما اتجوزتي صبري، وداريت عليكي لما اتأكدت إنك قتلتيه عشان أنتِ... أنتِ حب حياتي، إنتِ البنت أول كل حاجة الحلوة، إنتِ كبرتي على إيدي، ومافيش أي ست في الدنيا هتقدر تاخد مكانك في قلبي، بس... بس الدنيا دي مش تربة صالحة لقصة حبنا، كم القبح والشر اللي فيها قادر على إفساد أي مشاعر بريئة يا شويكار فماتلومينيش عــاللي حصل، لومي القدر اللي حطك قدامي في التوقيت الصح... وفرض علية أستغلك عشان أكمل مهمتي».

اقترب منها وقبلها بنعومة ثم همس بأذنها.

- «سامحيني، البطولة دايماً بتستلزم تضحيات».

أحكم قبضته على عنقها وبدأ يمتص الحياة منها، حاولت أن تقاومه وتخبطه بذراعيها ولكن قبضته كانت محكمة.

أخذ يخنقها متمتماً والدموع تنزلق من عينيه: «سامحيني... سامحيني».

شهقت وهرب الهواء من رئتيها، ارتعشت ووهنت حتى خرت قواها واستسلمت لقبضة حبيب عمرها.

لفظت أنفاسها الأخيرة وآخر ما رأته بذلك العالم الموحش هي دموع الذنب التي فرت منه.

تأكد أنها ماتت بين يديه، جثا على ركبتيه بضعف ثم ألقى رأسه على صدرها وأخذ يبكيها كالرضيع.

بكاها كما بكى والديه يوماً ولكن تلك المرة الشعور بالذنب اعتصره وركل أمعاءه فزاد أنينه حتى كادت تنزل مقلتاه مع دموعه المنهمرة.

تمالك أعصابه وأوقف بكاءه بعد عدة دقائق.

التقط قفازا طبيا موضوعا على طاولة سريرها، ارتداه ثم سحب إبرة الجلوكوز من يدها، قطع الحبل بعنف ولفه حول رقبتها بإحكام.

جر الكرسي الخشبي الهزيل وأوقفها عليه، أسند جثتها بصدره ثم ربط الطرف الآخر من الحبل بقضبان النافذة العالية، ركل الكرسي بهدوء فتدلت جثتها فتبدو للرائي منتحرة.

قبَّل قدميها ثم تأملها للمرة الأخيرة ورحل.

***

اختفى سليم وعادت شمس الصباح تنير الغرفة التي وقف بها حسين.

نظر لروح شويكار الواقفة بالزاوية ثم لجثتها المشنوقة.

وإذ بروح شويكار تفتح راحتها وتمدها له بابتسامة مطمئنة، أمسك يدها واتبعها كمن ندهته النداهة.

اتجهت نحو باب الغرفة فأنبعثت من ورائه موسيقى جاز صاخبة.

فتحت الباب وخرجا ليجد أنهما لم يعودا بالمشفى، بل ببيت صبري حيث تقام حفلة صغيرة لطلاب التوجيهية بليلة صيف حارة.

سارت شويكار ممسكة بيد حسين وسط الجموع الصاخبة والشباب الراقصين، أرشدته إلى مرادها، نزلا السلالم وصولاً للقبو، فتحت بابه فوجد صبري وسليم في سن مراهقتهما وقد شبّ شاربهما حديثاً.

فتح صبري علبة سجائر سرقها من درج والده وأعطى سليم سيجارة.

- «لأ، مش هاخدها».

- «هتفضل طول عمرك كودية وابن أمك ومش هتبقى راجل أبداً».

- «الرجولة مش بالدخان، يا أخينا».

ضحك ساخراً ثم أشعل سيجارته وفجأة سمعا ضوضاء عجيبة بالقبو وانطفأت اللمبة الكبيرة، اضطرب سليم ولكن صبري ضحك وقال مستهزءاً : «إنتو حضرتوا؟».

- «بيتك مسكون ولا إيه؟».

- «ماما بتقول إن البيت ده زمان كان مصبغة مهجورة والإنجليز بيستخدموها لتعذيب الفدائين والمناضلين وحرقوا المصبغة بالمصريين اللي فيها ومن يومها وأرواحهم ساكنة البيت وبيقولك بقى...».

خفت الصوت وتلاشى المشهد وسحبته شويكار فصعدا السلالم وقد بدأ الديكور يتغير وتختفي الموسيقى الصاخبة ويتبخر الشباب المحتفل حتى ساد الهدوء والظلام بالمنزل.

وصلا لصالة البيت ثم مشيا حتى المطبخ المظلم الذي تسلل من نافذته ضوء البدر على حوض الورود الذي ترقد بقاعه جثة صبري المقطعة إرباً.

رآيا ظل شخص وراء الباب الخلفي المطل على الحديقة الذي لطالما نسيت شويكار إغلاقه.

دار المقبض ودخل سليم المطبخ بحذر، تلفت حوله وتأكد من عدم وجود أحد، تأمل المطبخ حتى وجد مراده.

اقترب من ذاك الحوض ونظر إليه عن كثب، غرس أصابعه في الطين، لم تكن البذور قد نمت بعد.

وضع يديه في وسطه ثم ضحك: «يا بنت الذين يا شويكار».

اختفى المطبخ والحوض والباب، ثم ظهر مسند من الخشب وسليم يجلس على كرسي قصير ممسكاً بريشة وباليتة ألوان، يرسم لوحته الزيتية بعناية أسفل مصباح كبير.

اقترب حسين بحذر، حرك يده أمام وجه سليم فلم يرمش أو ينتبه لوجوده، اقترب أكثر ونظر للوحته، إنها تلك التي تخص سيدات المصبغة ذات الثلاثة عشر وجهاً وأوله وجه صبري وعليه علامة X حمراء كبيرة

أنهى تحفته الفنية ويداه وملابسه ملطخة بالألوان، رفع رأسه وتأملها ثم ابتسم بخبث.

عاد ديكور المطبخ، دخلت شويكار المطبخ لتغسل أطباق غدائهما، نظرت لتلك اللوحة المعلقة على الحائط فوق حوض

الورود الذي دفنت به طليقها، رأت ثلاث عشرة سيدة حيكت أفواههن وبأعينهن شعلة نيران متقدة، اقتربت أكثر وأخذت تحدق باللوحة فرأت وجه صبري بالخلفية، انقبض قلبها وأسقطت الأطباق من يدها في هلع منادية:

- «سليييم، سليييييييم».

أتى مسرعاً: «في إيه؟».

أشارت صوب اللوحة مضطربة فاقترب وعدّل نظارته وتأملها عن كثب.

- «مش دي لوحة ستات المصبغة اللي كانت في البدروم؟» ضحك: «ده بابا صبري كان بيحكيلنا حكايات مخيفة عنها واحنا صغيرين، بيقولك كان في تلاتاشر ست عاملين حزب سري ضد الإنجليز....».

اختفى المطبخ واللوحة والحوض والأطباق فسحبت شويكار حسين من يده وصعدا إلى غرفة نومها.

وقفت شويكار بالزاوية وتركته يشاهد.

كانت نائمة ندية الجبين، وعلى الكومود كوب من الماء وشريط من دواء الهلوسة قد ابتلعت منه الكثير ودخلت في نوم عميقٍ، ولكن سليم مستيقظاً بجوارها يتحسس شعرها الأملس ويُمَشِي أنامله على جسدها الناعم.

مال عليها وأخذ يوسوس في أذنها:

- «عايزينك... عايزينك تساعدينا، يا شويكار»، وضع شعرها خلف أذنها: «إحنا اتظلمنا زيك، كل واحدة فينا ماتت غدر وليها حق مالحقتش تاخده، الحياة قهرتنا زي ما قهرتك».

حركت أناملها المخدرة، وتقلبت على جانبها بهدوء تحت تأثير الدواء، وضع يده على خدها وأكمل

- «خدي لنا حقنا، يا شويكار... اقتليهم... اقتليهم عشان يستاهلوا».

تمتمت النائمة: «عشان يستاهلوا».

أمسك قلم حبر وسحب راحتها وأخذ يرسم وجها يحفظ ملامحه.

- «انتقمي... انتقمي لنا منه... اقتليه».

اختفى ديكور المنزل كله ليتحول لمساحة كبيرة، مزرعة معزولة بطريق مقطوع، منزل كبير وحظيرة طين بها الكثير من الخنازير وحارس نائم على البوابة وسليم يقفز من فوق السور بخفة كأنه اعتاد ذلك.

دخل المزرعة مرتدياً قفازيه وحاملاً حقيبة جلدية، فتح باب الحظيرة تحت ضوء القمر، سحب أربعة خنازير، تسلل من الباب الخلفي للمنزل، نزل القبو، ألقى بالخنازير فيه وتأكد أنه ما من شيء قابل للأكل بالداخل.

أحكم إغلاق الباب بالقفل، صعد لغرفة تشارلز وجده نائماً يشخر، دخل بحذر، قطع حبل الهاتف، أغلق النافذة ثم أغلق عليه الباب بالمفتاح الموجود في مقبض الباب.

ظل بالبيت ستة أيام، يسمع قباع الخنازير الجائعة وصراخ تشارلز الذي لا يفهم من حبسه بغرفته.

ستة أيام لم يزر أحد تشارلز المزعج وحتى حارسه لم يكترث لأن يصعد ليطمئن عليه فلطالما مقته الجميع.

صعد سليم إلى غرفة العجوز حاملاً كماشة وكيسا بلاستيكيا، ذُهل العجوز عند رؤيته ولكنه لم يمهله.

ضربه على رأسه، سحبه إلى الحمام، خلع أسنانه وأظافره كلها ثم نزع عنه ملابسه.

جره إلى أسفل، فتح باب القبو بحذر ثم ركل جسد العجوز الذي تدحرج على السلالم فتكسرت عظامه العتيقة مما سهل على الخنازير نهشه ثم أعادها سليم لمكانها فور أن أنهت وجبتها.

خلع سليم ملابسه الملطخة بالدماء، احتفظ بالأسنان والأظافر التي جمعها من ضحيته الأولى، أخرج ملابس نظيفة، ارتداها وظل بالنافذة يراقب الحارس حتى رآه يتجه لقيلولته اليومية، تمهل... خرج من المنزل ثم قفز من فوق السور.

عاد ديكور غرفة نوم شويكار، دخل سليم مبتهجا، وجد شويكار جالسة أرضاً بجوارها شريط الدواء.

كانت تحرك رأسها ذهاباً وإياباً وتهذي وتغمغم.

- «مش هقتل... مش هقتل... مش هقتل».

دخل مبتسماً، لم تنتبه لوجوده، جثا على ركبتيه أمامها وسحب يديها ثم نظر لراحتيها قائلاً بذهول مصطنع

- «إيه ده؟ إيه الدم اللي على إيدك ده، يا شويكار؟».

نظرت ليديها، لم يكن بهما شيئاً، أجابته مترنحة: «دم؟ دم فين؟ دم مين؟».

- «في دم، دم كتير... كتير أوي».

سحبها فنهضت ومشت خلفه في حالة تخدير وغياب تام عن الوعي، دخلا الحمام.

ملأ البانيو، ثم اتجها للحوض، أخذ يغسل لها كفيها قائلاً:

- «دم مين ده؟».

تمتمت مرتعشة: «مش عارفة... قتلت تاني!».

قبّل جبينها: «اهدي... أنا هفكرك بكل حاجة».

خلع ملابسه ثم نزع عنها ثيابها، نزل الحوض الدافئ وسحبها نحوه كالطفلة الصغيرة.

أراح ظهرها على صدره ووضع رأسها على كتفه وأخذ يصب الماء على رأسها ثم همس بصوت حنون:

- «مش ذنبك، هم اللي قالوا لك... إنتِ روحتي مزرعة تشارلز، الطباخ كان أجازة والحارس نايم، سحبتي أربع خنازير للبدروم وجوعتيهم ست أيام ورميتي تشارلز ليهم وكلوه حي».

أغمضت عينيها غائبة عن عالمها ثم رددت: «الخنازير كلوه حي».

- «ماحدش هيعرف، إنتِ مالكيش ذنب، هم اللي قالوا لك» قبل شفتيها: «هم اللي قالوا لك».

همست مرددة: «هم اللي قالوا لي».

اختفيا واختفى البانيو الدافئ ثم ظهر سليم، يقطع جثة ألبرت بالمصنع المهجور، يوسع چون ضرباً، يصب الأسمنت فوق جثة قوت القلوب ويلقي بها في النيل، يدفن جثتيّ فاكر وشاكر ثم يحرق العشة، يجلس ضاحكاً مع الأسطى رضا ويراه يأكل الكباب والكُفتة ثم يضعه في ذلك البرميل، يلقي بجثتيّ فتنة وسرحان بعنق المدفأة ثم يسكب الملح والثوم وحامض الليمون، رآه يطبخ أعضاء عباس البُرص في قدرٍ كبيرة ويستنشق رائحة طبيخه بمزاج مبتهج وابتسامة رضا.

وبعد كل جريمة، يكتب على الحائط 'اقبضوا علية... أنا مش قادرة أسيطر على نفسي'.

بعد كل جريمة، يشطب وجه ضحيته، بعد كل جريمة يعود لشويكار المحطمة التي صارت تقضي أيامها بكاءً أو نوماً... يقبلها، يحتضنها، يضمها بين ذراعيه بحنان ثم يهمس بصوته الدافئ حاكياً جرائمه ويقنعها بأنها الفاعلة، وفي كل مرة ينهي قصته بنفس العبارة.

- «مش ذنبك... هم اللي قالوا لك».

فتردد: «هم اللي قالوا لي».

حتى انهارت وحاولت أن تنتحر، أخذها لمصحة وجدي عبد الغفار كما طلبت هي، فور أن أودعها بغرفتها الجديدة اتجه لمكتب وجدي ودار بينهما حواراً قصيراً.

- «عايزك تديها من الدوا ده، حبتين في اليوم».

أخذ منه علبة الدواء ثم قال: «بس دي حبوب هلوسة، دي ممكن تذهب عنها عقلها وتجننها نهائياً».

- «أنا جوزها وبقولك اديهالها».

- «مستحيل، ده هيضر بيها».

- «بمناسبة الضرر، لو أنا قولت للناس إن زوجتي بتتعالج عندك وإنك بتستغل غيابها عن الوعي وبتتحرش بيها... مش ده هيضر بسمعتك؟».

- «أنا عمري ما لمست، مدام شويكار».

- «بس لمست غيرها، وهم يا حرام مجانين ومساكين وماحدش هيسمعهم».

ابتلع ريقه بصعوبة ثم قال: «لو حد عرف إني بديها الدوا ده هروح في داهية».

- «هي مالهاش غيري... إديها الدوا بنفسك، ولو حد عرف إني طلبت منك تديهولها... رد فعلي هيفاجئك».

ظهر مشهد لشويكار تجلس بغرفتها بالمصحة النفسية، دخل عليها وجدي ومعه تلك الحبة الملعونة وكوب الماء.

أخذت الدواء في فمها ثم شربت الماء، ابتسم لها وخرج.

ظلت تنظر للباب حتى تأكدت أنه رحل بعيداً، نهضت من سريرها متجهة للمرحاض، رفعت غطاء الحمام ثم بصقت الحبة التي خبأتها تحت لسانها وشدت السيفون ثم التفتت لفريد الواقف خلفها قائلة:

- «متأكد إني لو بطلت الدوا ده هقدر أخلف؟».

هز رأسه مبتسماً فضحكت له.

تبدل أثاث غرفة المصحة العقلية إلى أثاث منزل سليم والذي عاشا فيه مؤخراً، كان سليم يرتدي نفس ملابس الليلة التي اعترفت فيها شويكار بجرائم ظنت نفسها مرتكبتها، كان يتحدث بالهاتف بعصبية.

- «وجدي، شويكار حامل في شهرين».

- «إستحالة تحمل وهي بتاخد أدويتها... يبقى هي بطلت».

- «يعني إيه بطلت؟ أنا كنت بديها الدوا بنفسي».

- «يبقى كانت بتعمل نفسها بتبلعه وتروح تتفه في الحمام... مرضى كتير بيعملوا كده».

- «يعني إيه؟ الاتفاق إنها تاخد الدوا، أخفي فضيحتك عن الناس».

- «أنا نفذت اللي علية».

صمت ثم ركل الكرسي بالزاوية: «اسمع، في ظابط هيجيلك اسمه حسين... هيسألك عن شويكار».

- «ظابط يسأل عن شويكار ليه؟».

صاح منفعلاً: «وانت مال أهلك... أنت هتحكي اللي هقولهولك ده بالحرف لا تزود ولا تقلل....».

اختفى الهاتف ثم ظهر سليم بالمشفى بجوار شويكار بعد أن حاولت الانتحار وهي فاقدة الوعي.

سحب راحتها اليسرى ورسم عليها الوجه الثاني عشر ثم أخذ يهمس:

- «لازم تهربي... فاضل واحد كمان وترتاحي... إحنا هنساعدك... هنساعدك تهربي من المستشفى، تروحي شقة إدلار بالليل، تخبطيه على دماغه وهو بيستحمى وتدلقي عليه حمض الكبريتيك...ماية ناااار لحد ما جثته تسيح وتدوب وتنزل البلاعة في المجاري الوسخة».

غمغمت: «في المجاري الوسخة».

- «هتولعي سيجارة وتقري رواية... تمن ساعات ويدوب... هم اللي قالوا لك تقتليه... هم السبب».

- «هم السبب».

اختفى كل شيء، عمّ الظلام ولم ير حسين أحد سوى روح شويكار المبتسمة.

- «سليم عمل كل ده؟! طب... طب ليه؟!».

اختفى شبحها وانقشع الظلام وعاد المشهد، غرفة المشفى وجثة شويكار المشنوقة تحت النافذة.

دخل إسماعيل قائلاً: «بيقولوا بلغوا جوزها أول ما نقلوها للمستشفى وجه بعد الولادة و...».

- «خلاص، يا إسماعيل أنا عرفت كل حاجة... هنطلع على الجمالية فوراً».

***

(11)

اتجه للعنوان وصعد البناية كما صورتها له شويكار، دخل الشقة كأنه يحفظها عن ظهر قلب، اقتحم الغرفة المنشودة ومن خلفه إسماعيل وعسكريين آخرين.

وجد اللوحة ومن خلفها الدفتر والرسائل، فتح قاعدة الكرسي ثم وجد الأكياس كما أرته شويكار بالضبط.

نزلا البناية وإسماعيل لا يفهم شيئاً: «يا باشا، فهمني طيب».

- «الموضوع طويل، سليم هو اللي عمل كل الجرايم دي مش شويكار... شويكار قتلت صبري وبس».

- «يعني إيه؟ إزاي؟ دي هي اللي اعترفت».

- «هفهمك بعدين، لازم نقبض على سليم الأول».

***

اتجه لمنزل سليم، طرق الباب، مرة، فالثانية، لم يتلق رداً ولم يسمع حركة.

كسر الباب بركلة، ثم دخل شاهراً مسدسه وإسماعيل يتبعه... وجد المنزل هادئاً ومرتباً، نادى

- «سليم... سليم».

انتشر إسماعيل مع الرجلين الآخرين يبحثان في أرجاء المنزل حتى سمع حسين نداء إسماعيل من الطابق العلوي.

- «لقيته، يا حسين بيه».

صعد السلالم متجهاً لغرفة النوم حيث يقف إسماعيل.

وجد حقائب السفر موضوعة على السرير بجوارها تذاكر طيران، نظر للأرض فوجد سليم مستلقي على ظهره قاطعاً شرايين يديه وقد ملأت دماءه السجاد.

أنزل حسين مسدسه ونظر في أرجاء المكان ثم قال ضاحكاً:

- «يظهر إنها سبقتنا».

- «هي مين دي يا فندم؟».

***

مشى حسين بالممر متجهاً لمكتبه برفقة إسماعيل.

- «الكلام اللي في الدفتر هيترجم إمتى؟».

- «هيبقى على مكتب حضرتك بكرة الصبح».

- «النهاردة... هيخلص النهاردة».

***

بعد ساعات طويلة من الترجمة، استلم حسين الدفتر مترجماً إلى العربية.

إتجه لمكتبه وطلب ألا يزعجه أحد، رشف قهوته السادة ثم أشعل سيجارته وبدأ يقرأ.

«لو بحثت عن الراحة لن تجدها إلا في قبرك، كانت تلك الحكمة التركية الأثيرة لدى أمي، كلما تذمرت من شيء كانت ترددها على مسامعي، ولكن من البديهى أن يصبح هذا مثلها المفضل، فامرأة كأمي لم تر في حياتها أية راحة.

فتاة انحدرت من نسل عائلة لطالما خدمت السلاطين العثمانيين بمصر بصرامة وتفاني، بين قصر رأس التين وسرايا عابدين.

كانت أمي ابنة الثامنة عشرة تخدم بقصر رأس التين. بديعة الجمال وذكية، تفهم السياسة وتتابع الأحداث ولكن لم تتح لها الفرصة لأن تتكلم وأن تشارك بأفكارها.

كانت ترى أصدقاء الملك السمين يجتمعون صيفاً بالإسكندرية، يمضون ليالي مرحة وعلى رأسهم ذاك الإنجليزى تشارلز روبنسون الذي لا يختلف شكله كثيراً عن خنازيره التي يتاجر بها.

كان يكبرها بما لا يقل عن عشرين عاماً ومع ذلك ترى نظرات الشهوة في عينيه من تحت نظارته المستديرة.

كثيراً ما تعمد لمس يدها عندما تقدم له الشراب أو وكز فخذها بكوعه عندما تضع له الطعام... ذلك الخنزير الأبيض الذي لا يشبع أبداً من النساء ظل يشتهيها حتى أتت ليلة الثالث عشر من مايو 1933 وتحقق حلم تشارلز، كان أخوه ألبرت صديق طبيب خدم القصر الألمانى النجس إدلا ربرغ،

أخبره عن رغبته المتقدة في إعتلاء تلك الجارية العثمانلية التي تنظر له شزراً كلما حاول لمسها وتمنع أن تحييه إذا رأته يدخل القصر.

لم يكن أمراً صعباً أن يطلب ألبرت من إدلار أن يسحب الخادمة الشقراء إلى عيادته ثم يخدرها ليترك ذلك الخنزير البري يظفر

بها كما حلم كثيراً، وكان ذلك...

عادت لوعيها ووجدته يغلق سحاب سرواله، نظرت له بهلع فضحك لها بخبث، ألقى بضعة أوراق مالية في وجهها ثم خرج وتركها.

مضى الصيف ودُرية تبكي كل ليلة في سريرها مقهورة، ذلك الجنين ابن الخنزير المغتصب أخذ يتكون في أحشائها وبدأ بطنها يكبر، لا تعرف كيف تتصرف وماذا تفعل فأبويها لن يفهما معنى الاغتصاب، سيظنان أنها عاهرة باعت نفسها فيقتلاها أو تعدم بالحديقة لتكن عبرة لمن تسول لها نفسها بالرذيلة.

فقدت وعيها وهي تنظف فحملتها الخادمات لإدلار طبيب الخدم الديوث. أخبرها بحملها، صاحت به، هددته أن تخبر الكل أنه تواطأ مع تشارلز ليفقدها شرفها، صفعها ثم ركلها، دخل مساعده الطبيب المصري أنور، حمله عنها، طرده إدلار من العيادة ثم سحب درية خلسة إلى القبو، قيدها، اتصل بألبرت صديقه شقيق تشارلز، أتى متعجلاً، بصق في وجه الخادمة الحامل قائلاً

- «شايل في بطنك ابن حرام عايز تنسبه لأخونا النبيل؟!».

انهال عليها ضرباً حتى هدأه إدلار ووعده بأن يقتل الجنين.

ظهر أنور الطبيب المغوار، هرَّب درية من القبو، أعطاها مالاً ومفتاح بيت بالجمالية قائلاً:

- «بيتي مافيهوش حد وأنا هجيلك في أقرب فرصة،العنوان مايتوهش، 13 ش المنصورية حي باب الشعرية بالجمالية».

- «تشكرات...تشكرات».

هربت للقاهرة التي لم تزرها سوى مرة واحدة في طفولتها.

بحثت عن البيت حتى وجدته بسهولة وبقيت تنتظره.

جاءالشهم، عبر لها عن حبه واحترامه، لم تصدقه، أقسم لها، أخبرها أنه سمع قصتها خلال حديث ألبرت وإدلار بإحدى المرات. أقسمت له أنها شريفة ولم يكن لها شأن فيما حدث، صدقها، تبنى قضيتها، عرض عليها الزواج لأنه أحبها فقبلت لأن بطنها انتفخ.

نسب ابن الخنزير له، أبقاها مخفية في الجمالية واستمر يعمل بالإسكندرية ولم يذكر أحد اسم درية ثانية بعد أن تم طرد أهلها من القصر لأنهما والدا 'الزانية'.

مرت الأعوام وترك إدلار القصر مع قيام الحرب العالمية الثانية وهرع لإحضار عائلته الفارة من بطش النازية الألمانية. تولى أنور مكانه، زاد مرتبه وهيبته ومكانته فعاد إلى القاهرة واشترى شقة ببناية أنيقة بالزمالك نقل إليها درية وطفلها، سليم وابنتهما الصغيرة هِيدى.

كانت الأمور على ما يرام، أو هكذا أقنع نفسه، كانت درية دائمة العبوس، جرحها القديم والظلم الذي تعرضت له جعلاها مخلوقة من حجر، لا تعرف الابتسام أو الحنان، كثيراً ما تمتم وهي نائمة أنها ستنتقم من الجميع، وعندما شب ابنها

أخبرته بقصتها عله يطفئ نارها و ينتقم لها...تمنى أنور أن تنسى الماضي ولكنها لم تنس يوماً.

وصل الأمر لذروته عندما وصل تعنتها لجعل هِيدى تهرب مع من اختاره قلبها، ثم تضخم الأمر عندما ذهب أنور لكريمان فأخذت تقذف المحصنات وتخوض في سمعة دُرية، كاد يفقد الابن عقله عندما أدرك أنها تعلم ماضي أمه وأنه سمح لساقطة ككريمان أن تعبث به وتهينه بهذا الشكل.

شجار بعد شجار حتى كادت تنعدم زيارات أنور لبيته، ومن ثم كانت ثورة 1952، فقد مهنته بالقصر وعاد إلى الزمالك.

بقي شهرا بلا وظيفة، شهر تلو الآخر، شجار تلو الآخر بدأ يختفي أنور عن بيته بالليالي.

لم تكن تعلم أين يذهب وكيف يعود كل ليلة سكراناً مترنحاً، لم تكن تعلم أن التوأمين فاكر وشاكر قد تعرفا على أنور بالمقهى في ليلة كان يلعن فيها اليوم الذي تزوج فيه من درية البومة.

جلسا معه فقد بدا من علية القوم.

شكى لهما همومه وأحزانه وأنه شعر أنه زاد على عمره مائة سنة.

كلمة تلو الأخرى جرا ساقيه لكباريه تعمل به راقصة تدعى قوت القلوب.

سحرته بأنوثتها الطاغية وصوتها المبحوح، كانت هي والتوأمان بداية ضياع أنور، أسقوه كأساً ثم لفوا له سيجارة، مضغ الأفيون ثم شم الكوكاين وهو يلعن الثورة التي أفقدته مكانته.

وقع تحت تأثير قوت القلوب، أدمنها كما أدمن الكوكايين، أصبح يتوسل لها أن تتزوجه فكان ردها واحداً.

- «مش هتجوزك غير لما تكتب لي شقة الزمالك».

- «طب درية وسليم؟».

- «ما أنا مش هطردهم من الشقة ولا هروح أعيش فيها، ده بس ضمان لية إنك مش هتقضي معايا ليلة وتسيبني، بس كلمة شرف لا هخلي مراتك تعرف إننا أتجوزنا ولا إنك كتبت لي الشقة».

كتب لها الشقة واقعاً تحت تأثيرها وتشجيع صديقيِّ السوء له ثم أخذ يكتب لها كل أملاكه عدا بيت الجمالية.

ظل يمضي أيامه مبتهجاً بين أحضان قوت القلوب واستنشاق ذلك السم الأبيض حتى مات... مات بعوامة قوت القلوب بجرعة زائدة.

اتصلت بالتوأمين، حملا جثته وألقيا به بالشوارع الفارغة.

وقع الخبر على سليم ودرية وقع الصاعقة، بل زاد الأمر سوءاً عندما طرقت قوت القلوب بابهما ومعها حقائبها.

- «برة يا ولية انتِ وابنك، جوزك كتب لي الشقة قبل ما يموت».

خرجا من الشقة مدحوري الرأس ودرية تلعن زوجها المتوفي وظل سليم يحفظ شكل تلك الراقصة الساقطة وهذين التوأمين اللذين خدعا والده وسلباه كل أمواله وألقيا بجثته بالطريق.

عادا للعيش بشقة الجمالية...

كادت درية أن تفقد عقلها عندما تركت تلك البناية الأنيقة لتعيش بزقاق، كيف تسكن درية خانوم بحارة عشوائية غوغائية

وسط عامة المصريين الهمج؟!

لم يعد لديهما أموالاً تكفي معيشتهما فقرر الشاب الأشقر أن يصبح رجل البيت، نزل الشارع باحثاً عن عمل بجوار دراسته بكلية الطب... وجد ذلك الميكانيكي 'الأسطى رضا' سليط اللسان، طويل اليد، والذي قبل بسليم كصبي ميكانيكي.

علمه المهنة فاستوعبها سريعاً بين سباب ولعن وضرب.

صار يعمل بالورشة ليلاً ويدرس نهاراً مقابل الزهيد من المال.

بين ضرب بالمفك وإهانة، بدأ صبر سليم الذي يود أن يصبح طبيباً ينفد.

طلب المزيد من المال لأنه صار ميكانيكياً بارعاً وأصبح الناس يأتون له بالاسم، رفض الأسطى رضا، غضب سليم، قام الأسطى رضا بصفعه، لكمه سليم، سحب الأسطى رضا

الكوريك وضربه على ظهره، سقط الفتى، لكمه مرة تلو الأخرى حتى كادت تدمى شفتيه ثم صاح به:

- «ماشوفش وش أمك في الورشة دي تاني».

نهض سليم متأوهاً ولكنه نظر لرضا عن كثب وقد أقسم أن ينتقم منه ولكرامته يوماً.

تنقل بين الحِرف، صبي قهوجي، نقاش، صبي نجار. كل ما وجده بتلك الحارة البائسة من مهن عمل بها.

نسي... نسي أحلامه المترفة وحبيبته الناعمة التي أكد له صبري أنها عادت للإسكندرية ولا أثر لها بالقاهرة... كانت حياته أقسى وأخشن من أن يسهر الليل يفكر في شويكار.

بمرور السنين كانت والدته تشير عليه أن يذهب لجون ابن تشارلز الذي يُعتبر أخاه، كان فتى معروفاً بأعماله الخيرية والمناداة بحقوق الإنسان، عله يجد له مهنة مناسبة ولكن كرامة سليم منعته.

تعرف بالجامعة على شاب يرسب سنة تلو الأخرى يدعى سرحان، كان فتى لهو ومرح وحفلات صاخبة، ابن عائلة

من البشاوات الإقطاعيين التي سقطت بسقوط المملكة وقيام الثورة فصار ابن عائلة ذات اسم كبير ومال قليل وعاش حياته معتمداً على لعب القمار.

أخبر سليم أن الربح بالقمار مضمون، دعاه للعب أكثر من مرة، رفض، أصر الآخر، أخذ يقنعه حتى جره للقمار كما جر التوأمين أباه للكوكايين.

تعرف على شلة فاسدة من أولاد العائلات التي دفنتها الثورة، أبناء وزراء الملك ورجال الحاشية وأصحاب الأعمال، كان مجتمعاً فاسداً وعطناً ينظر له سليم بازدراء ثم يتساءل... كيف ساوت الثورة بين والده الذي كان طبيباً شريفاً بهؤلاء الفاسدين؟ كيف صار مفلساً مثلهم؟! كيف ساوى القدر بين من ستر عِرض امرأة وبين من هتكوا الوطن؟!

كبر الحقد الساكن في قلبه، صار يمقت البلد أكثر، لم يعد يبالي بشهادته ولا بالمبادئ النزيهة التي تعلمها يوماً، صوّب اهتمامه كله نحو شيء واحد... المال.

تعلم القمار، وككل شيء تعلمه برع فيه.

تعرف على فُتنةالسمراء ذات الشعر الوهاج، كانت بائعة هوى ولكن بهذه الشلة هي ملك سرحان فقط ومن تسول له نفسه بغير ذلك سيدفع الثمن.

لن ينسى تلك الليلة، كسب مبلغا خرافيا سيجعله يتوقف عن العمل عند أصحاب الحرف الغلاظ لفترة.

غضب سرحان واتهم سليم بالغش، جمع سليم الأموال، نهض سرحان وقلب الطاولة، كسر عنق الزجاجة وأقسم أنه سيذبحه إذا خرج بماله.

ابتسم سليم بثقة، لكم سرحان السكران بقوة فسقط، ركل شابين آخرين متحمسين فسقطا جانب صاحبهما، نظر لهم بتحدٍ شاعراً بقوة جامحة، لم يعد سليم أنور ناعم الأظافر.

جمع الأموال ثم خرج، مشى في الشارع بضعة خطوات ظافراً فلحقته فُتنة لاهثة.

- «إستنى، يا سي سليم».

- «عايزة إيه؟ مش تخليكي جنب حبيب القلب اللي اتكوّم فوق؟».

- «أنا ماليش حبيب قلب يا عيني، أنا مع اللي بيدفع»، غمزت له مشيرة للمال الذي بحوزته: «مش عايز تحتفل بالنصر؟».

ابتسم، أعجبته الفكرة،أراد أن يشعر بالانتصار، لن يكتفي بأنه فاز بأموال الشاب الفاسد بل سيظفر بعاهرته المقدسة.

ذهب إلى شقة فُتنة الوضيعة، وضع الأموال على الطاولة، دخلت غرفتها وارتدت ثوب نومها المثير ثم أخرجت زجاجة الكونياك.

دخلت المطبخ لتسكب له كأساً وضعت فيه قرص منوم وخرجت، شرب الكونياك ثم جذبها نحوه بشهوة، استمهلته:

- «مش أرقصلك الأول؟».

سحبت طبلة بالزاوية وضعتها بين يديه ثم غمزته بخلاعة:

- «تعرف تطبل؟».

ضحك، طبّل لها، أخذت تميل وترقص وتثير شهواته، نهض وجذبها إليه متثائباً، أجلسها على حجره وقد صارت رؤيته ضبابية، استسلم للنعاس وأغلق عينيه.

نهضت، فتحت الباب فدخل سرحان والشابين، أسرع واحد منهما بحمل المال الموجود على الطاولة ثم سألها سرحان:

- «نام؟».

- «أيوة، يلا نمشي».

- «نمشي؟»أشار للكدمة الزرقاء حول عينه:«ومين هيدفع حق ديه؟!».

اتجه صوب سليم، جذبه من قميصه وصاح به:

- «مش سرحان أبو غالي اللي حاجته تتاخد منه، يا روح أمك».

اجتمع الشبان ثلاثة وأخذوا يوسعون سليم ضرباً وفُتنة تشاهد.

بين لكم وركل، لم يستطع سليم أن يستجمع قواه بسبب ذلك المنوم، جعل أعصابه مرتخية لا سيطرة له عليها.

ضربوه بغل ثم أخذوا فُتنة وتركوه ليستيقظ لاحقاً بوجه متورم وأمواله قد سرقت بعد أن خدعته فُتنة، فعاد لأمه منكسراً.

صاحت به: «سليم، إنت فين من الأمس؟ تخلي ڤالدتك تدور عليك زي المجازيب في الشوارع؟!».

لم يجبها ودخل غرفته، تبعته غاضبة حتى لمحت تلك الكدمات بوجهه.

- «إيه اللي حصل؟ دخلت في عراك؟».

بكى لأول مرة: «سبيني في حالي أنا مش طايق حد».

انفطر قلبها فهرعت إليه: «سليم، إنت بتبكي يا ڤلد؟ الرجل لا يبكي».

- «يعني الدنيا تبهدلنا وتمرمطنا وحرام كمان نبكي؟ ليه؟ مش بشر؟ مش بنشعر؟!».

- «لأ بشر، بس بشر أقوياء...الرجل القوي لا يبكي».

- «أومال لما الدنيا تديه على قفاه يعمل إيه؟».

- «ينتقم»، رفع رأسه: «ينتقم من اللي اداه على قفاه، إنت سليم ابن درية، إنت بطل، إنتقم من اللي يئذيك، ماتكنش أحمق زي ڤالدتك اللي تركت فرصة للآخرين يؤذوها...إنت ابني القوي».

أعجبته الفكرة: «القوي ينتقم».

- «إسمع سليم، أنا فكرت كثير، إنت بتتعب، بتشتغل وبتذاكر في الوقت اللي إنت ليك حق تبقى مترف ومنعم».

- «مترف ومنعم بفلوس مين إن شاء الله؟».

- «بفلوس أبيك».

- «بابا كتب كل حاجة لقوت القلوب الوسخة».

- «مش أبوك أنثر، أبوك الحقيقي... تشارلز».

- «آنّا، إحنا اتكلمنا في الموضوع ده كتير و...».

- «أنا روحت لابنه چون اليوم وقلت له الحكاية كلها».

انفعل: «إيه؟ ليه؟ إحنا لما صدقنا إنهم نسيوكي».

- «اسمع ابني... چون زعل كتير لما عرف باللي أبوه وعمه فعلوه، قالي أرسلك إليه في الصباح عشان يعوضك عـالي فات، قال لي إنه دائماً بيحلم يكون له شقيق».

- «آنا...الموضوع مش مريح، ماحدش بيعمل كده».

- «الفقر وحش، الفقر وحش، يا سليم وإحنا عايشين في هذا الوضع منذ ثلاثة سنوات، أنا عايز أرتاح».

- «مش حضرتك اللي ديماً بتقولي إن الراحة في القبر بس».

صاحت: «إسمع يا ڤالد، أنا مش باخد إذنك ده أمر، هتروح غداً لچون مفهوم؟».

ليته لم ينفذ أمرها، استحم وتعطر وارتدى بذلته القديمة، اتجه لبيت چون المترف، استقبله صاحب الشعر اللامع والجسد الرياضي والسيجار الكوبي بابتسامة مصطنعة.

طلب منه أن ينزلا للقبو ويتحدثا هناك كي لا يسمع أي شخص من الخدم ما يدور، نزل معه ولم يكن يعلم أنه سيجد رجلين مفتولي العضلات ينتظرانه بنظرات لا تبشر بخير، أغلق چون باب القبو قائلاً:

- «إنت بقى أخي اللي عايز فلوس البابا؟».

- «أنا مش عايز منك حاجة».

جيت ليه؟ «So-» .

نظر لصاحبي العضلات ثم قال سليم:

- «عايز تتخانق؟ خليك شجاع وواجهني راجل لراجل».

ضحك ساخراً:«Dear،العالم شبع من الرجال الشجعان الكتير.

العالم عايز رجل ذكي، عايز تكون غني وقوي والكل يهابك... إنس عضلاتك» ابتسم:«.”use your brain, brother

أشار لصاحبي العضلات قائلاً: «مش عايزه يموت، يبدو لي شاباً ذكياً وهيتعلم الدرس وهيصك لسانه ومش يتكلم في موضوع ده تاني أبداً وهينسى اللي صار لأمه العاهرة وهيمحو اسم عائلة روبنسون من دماغه كلياً... أما والدته اللي السنين مش علمتها الصمت، أرسلوا لها الولد ده..إيه كان اسمه؟».

أجاب أحد الشابين: «عباس البُرص، يا خواجة».

- « Yes،أبعت عباس للماما بتاع الولد»، خرج من القبو صائحاً بحماس:« Goodbye, brother».

لا داعي لذكر التفاصيل، يكفي القول بأنه ضُرب حتى أُغلقت عينه اليمنى من شدة الورم، تكسرت أصابعه وفقد سنين ولم يعد يسمع بأذنه اليسرى، شقت شفاهه ونزف أنفه، ثم سكبا عليه الماء البارد وحملاه بالسيارة وألقيا به بعيداً عن منزل چون الثري.

لا يعلم كم مر عليه من الوقت حتى استعاد وعيه وحاول أن ينهض.

لم ينهض تمسكاً بالحياة بل ليلحق بما تبقى من عائلته المنكوبة.

نهض ومشى حتى وجد سيارة أجرة أصر سائقها أن يقوده للمشفى ولكن سليم ذهب لمنزله، في لحظة دخوله البناية خرج شاب رفيع ذو أنف رفيع وبوجهه ندب يمتد من جبينه حتى ذقنه، حفظ ملامحه ولكنه كان سريع الحركة، رطم كتفه وركض خارجاً فناداه سليم

- «عبااااااس».

التفت فتأكد سليم من هويته، ركض عباس سريعاً ولم يحاول أن يتبعه، قفز على ساق واحدة صاعداً تلك السلالم المتسخة المحطمة.

وجد باب الشقة مواربا، دخل منادياً بأنفاس محترقة ونبرة متهدجة

- «آنا...آنا».

دخل غرفتها فوجدها ملقاة أرضاً تئن وسكيناً حاداً مستقراً بصدرها.

بكى: «آنا...آنا... ماتسيبينيش».

عبست وقالت بنبرة مرتعشة.

- «الرجل لا يبكي...الرجل ينتقم، يا سليم».

لم تمهله، لفظت أنفاسها الأخيرة.

سجن دموعه، أغلق لأمه عينيها ثم جلس بجوار جثتها، ووضع رأسها

على حجره وأخذ يمشط شعرها الذهبي بأنامله.

بلع حزنه واعتلت ملامحه الجدية، نظر أمامه نظرة رجل خسر كل شيء ولم يبق له سوى هدفه...الثأر.

دفنها ودفن معها ما تبقى من إنسانيته، صارِ كالميت الذي دُفن جسده وصعدت روحه للسماء ولم يتبقَ سوى شبحه الهائم على وجه الأرض باحثاً عن الانتقام ممن قتلوه.

استجمع قواه، ولم يبك من يومها، لم يتشتت ولم يشعر بأي شيء، كلما رأى تلك اللوحة الزيتية التي رسمها لحبيبته كان يحن لحياته الوردية ولتلك الطفلة التيِ ذِكر اسمها وحده قادر على أن يذيب قلبه بين ضلوعه التي طحنها الدهر، ولكنه كان يغضب من لحظات ضعفه ويقرر أن يعاقب نفسه فيذهب إلى المطبخ ويسحب سكيناً ويجرح يده ويعنف نفسه مغمغماً:

- «الحب هينسيك هدفك ولو نسيته، هوجعك... هوجعك يا ضعيف، يا فاشل، يا مغفل، يا كرودية».

بعد أن يجرح نفسه يظل يحملق بدمائه التي تذكره بأنه مازال إنساناً فانياً ثم يرحل ضاحكاً.

أكتب عن ذاك السليم بصفة الغائب لأنه مات ودفن يوم دُفِنَت أمه، يوم حسبته الحياة عبداً ضعيفاً سيترك القدر يسلبه كل شيء، عائلته ونسبه وكرامته ومجده وشبابه وأمواله وحبيبته.

سليم الذي يتكلم الآن سيسترجع كل ما أُخذ منه رغم أنفه وسيقضي على كل نفس افترت عليه وسيحقق العدل لنفسه.

عذراً أمي ولكنني لن أنتظر حتى أصل قبري لأجد راحتي».

***

- «بس كده يا حسين بيه؟! ده كل اللي كتبه؟».

- «ده كفيل إنه يفهمنا إيه الرابط بين الاتناشر بني آدم دول وإيه دافع الجريمة».

- «طب هو أصلاً كتب كل ده ليه؟ مش عارف إنه هيبقى دليل ضده؟».

- «ماعنديش أي فكرة، مش هقدر أحلل تصرفات واحد زي سليم».

- «طب ماكتبش مثلاً قتلهم إزاي ولا جاب عنهم معلومات منين ولا إزاي بقى غني وصاحب بيت كبير ولا لقي شويكار إزاي ولا كان ناوي مين يبقى الوش التلاتشر من الأول، ولا أي تفاصيل من دي؟».

- «ماظنش إن ده هيفرق معانا» نهض بحزم: «إرجع لمراتك، يا إسماعيل... القضية خلصت».

***

ن للنشر والتوزيع

info@noonpublishing.net

02-338560372- 01127772007